دار شرقيات

قصص

صور مؤجلة للفرجة

مصطفى البلكي

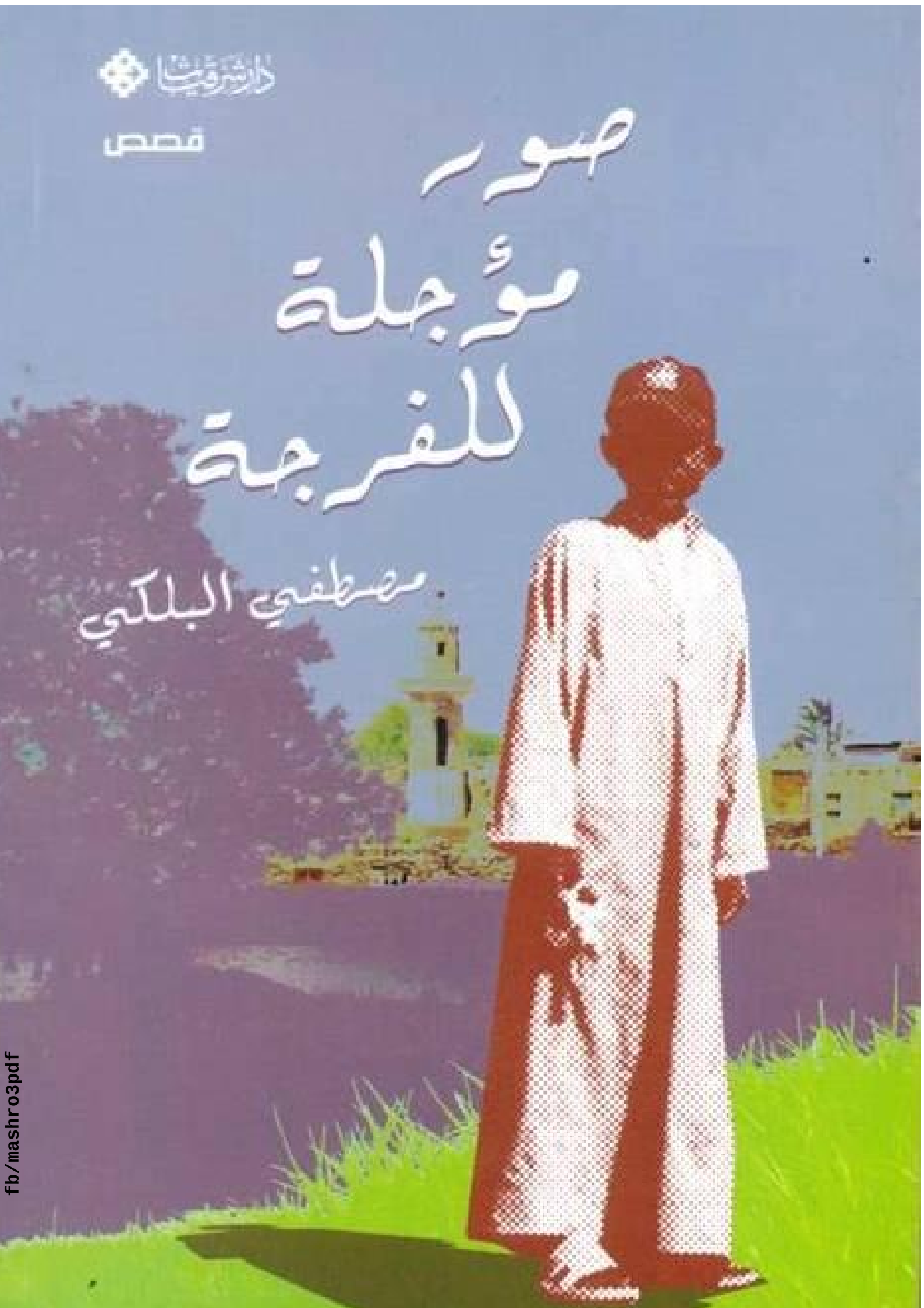

fb/mashro3pdf

باب اللوق، القاهرة
ت:٢٣٩٠٢٩١٣، ٢٣٩٣١٥٤٨
Sharqiyat2010@yahoo.com
غلاف: أحمد كامل

البلكي، مصطفى
صور مؤجلة للفرجة: قصص قصيرة/ مصطفى البلكي– ط ١.–
القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
١٠٠ ص ؛ ٢٠x١٤ سم.
رقم الإيداع ١٩٥٥٥ /٢٠١١
تدمك ISBN 978-977-283-373-6
رواية – العنوان ديوى ٨١٣

صور مؤجلة للفرجة

قصص قصيرة

مصطفى البلكي

fb/mashro3pdf

وخز

نظرت إلى أولادها، والي العجوز، والي البيت الواطئ، وهي تعاير الغلة، وقالت إن ما تتحصل عليه نظير قيامها بلم البيض والجبن من النجع، وحمله للمدينة، والجلوس به في السوق، ما عاد يكفي إلا لوجبتين.

تبادل الأطفال نظرات ملأي بالعجز، وقاموا والصمت رفيق خطواتهم، حتى إنهم حينما حاذوا جدتهم، عجزوا عن مناوشتها كما يفعلون.

العجوز أحنت رأسها، وأعطت كامل انتباهها لصوت احتكاك حبات القمح بالعلبة الصفيح، ولما تيقنت بابتعاد الصغارعن بيت لم يعد فيه إلا هي وزوجة ابنها الشابة، سألتها:

. آخر ربع؟

قالت: نعم. وسكتت..

فألقت العجوز بجسدها على الحشية، وأسلمت عينيها لسقف قارب على السقوط، وأذنيها لجدار الخزانة، تنصت إلى الحركات الناشئة من تغيير زوجة ابنها الأرملة لملابسها، وارتداء ملابس الخروج.

حينما ساد الصمت أيقنت بقرب خروجها، فاعتدلت، ليقع نظرها عليها وهي تضرب ذيل الجلباب المترب، فارتفع الجلباب، لمحت العجوز ساقيها البضتين الناعمتين، فساورها نفس شعور الخوف، الذي عاشته حينما غادر ولدها البيت محمولا علي الاكتاف، تهز العجوز رأسها، بغرض طرد كل أوهام الفقد، وتركز في متابعة زوجة ابنها وهي تميل، بغية رفع ربع الغلة. تستقيم الأرملة فتلمحها بطرف عينها وهي تطلق همهمات خافتة، تتجاهلها، لعلمها بالسبب، وتشغل نفسها بنزع الجلباب الغائب بين فلقتي ردفها، على مرأي من العجوز التي سحبت الباب المتهالك، فصر، لتعانق الفراغ الظاهر لها والمحتقن بصخب بالصغار.

الأرملة من جانبها تعرف أنها إذا ما تجاوزتها، ستجعل نظراتها توجه إلى لا شيء، وسوف تنبهها إلى ظلها، توصيها بأن يظل معتدلاً، ولو حدث ومال عليها بدون إبطاء تقويمه. العجوز رأت أن تخالف طقسها،

fb/mashro3pdf

حينما وقعت عيناها لحظة الارتداد على ردفي الأرملة، شاهدتهما وهما في حالة عراك دائم، يلتقيان ثم يبتعدان في حركة منتظمة، حولت نظرها إلى دوامات الغبار المتصاعدة بجوار شجرة النبق العقيمة، عانقت الصغار، فتعلقت بهم، وحاولت إعادة النصح، لكنها شعرت بجفاف حلقها، من أجل النجاة تشبثت بالردفين، وصرخت فيها لتأخذ واحداً من عيالها معها.

الأرملة لم تعلق، واكتفت بإخراج اسم أصغرهم، وسارت في طريقها ببطء، فلما وصلتها وقع أقدامه الراكضة، أطلقت العنان لقدميها، من أجل اللحاق بالوا بور قبل أن يكتظ برواده.

بعد أن لامست يد الصغير ذيل جلبابها، واطمأنت إلى وجوده، رفعت يدها اليمني، فلما تجاوزت حافة المقطف المضفرة بقصاقيص القماش الملون، ثنت أطرافها، وبدأت بنبش سطح الغلة، مرة، ومرتين، في الثالثة حينما غمست الأطراف بعمق أكبر، وجدت ما كانت تبحث عنه، الشيء الوحيد الذي تصر على وجوده معها في مشاويرها.

بلهفة سحبتها، ووضعتها في المسافة المناسبة. ارتبكت إذ رأت وجهها بلونه الأبيض يرزح تحت غابة من الزغب، المنتشر حول العينين الواسعتين، والوجنتين، وتحت الأنف، رغبت في البكاء، لكنها تذكرت الصغير ويده المتشبثة بذيل جلبابها المترب، تركت يدها في الوضع السليم، ومدت بوزها إلى الصغير، ولاذت بعينيه الصغيرتين، تطلب منه التكتم على ما رأى وشاف.

الصغير رفع إليها وجهه الشاحب، والمزدان بابتسامة عذبة، شقت شفتيه الجافتين، رأت، فرغبت في استخلاص موافقة صريحة منه، فاستعارت جهامة العجوز وقت خروجها، وقالت:

. خلاص.

أومأ الصغير موافقا، وهو يحافظ على ابتسامته، وأظهر لها لهفته لرؤية وجهه في المرآة التي حرمت العجوز دخولها البيت.

وهي تعيد الشظية لمكانها، تمنت ممارسة طقوس النساء اللاتي تراهن في السوق، مجليات ومكحلات العيون، ومزججات الحواجب، وواضعات قطع اللادن في أفواههن.. تلعن في سرها العجوز وما قامت به، يوم أن دخلت خزانتها ووجدتها تتطلع إلى وجهها في المرآة الملتصقة بالجدار، ركبها عفريت الغضب، فنزعت المرآة، وألقت بها على الماجور المقلوب المجاور لصومعة خاوية، فتهشمت، مالت عليها وجمعتها، وبعيداً في قلب الهدار ألقت بقطعها.

ألقت بجسدها على الحشية المفرودة على الأرض، ودفنت وجهها في المخدة، ولما أخذت كفايتها اعتدلت على صوت خربشة، وجدت الفأر اللعين يزيح الغبار عن شظية صغيرة من المرآة، غائبة خلف الصومعة، مدت يدها وسحبتها، أزالت عنها الغبار، وجدتها قطعة صغيرة في حجم كفة اليد، لكنها كافية لرؤية الوجه إذا وضعت في وضع مناسب.

fb/mashro3pdf

خوفا من توغلها خلف الذكريات، فضلت استعادة حضورها، فعادت، فإذا هي قريبة جدا من شجرة السنط، يلوح جذعها المجروح في أماكن كثيرة بجروح مُلئت بصمغ، يجذبها؛ لاقتناعها بأنه جائزة مناسبة لصمت الصغير.

تقدمت بدون أن تأخذ في اعتبارها خطر الشوك، همها كله وضعته في كتل الصمغ المتجمعة، كتلة واحدة منها تكفي لعمل عشرات الطائرات الورقية التي يجيد الصغير صنعها. اندفعت، متعلقة بطوق النجاة، خطوة، والثانية لم ترفعها، لثقل قدمها الساري فيه ألم الوخز، فثبتت في مكانها، وأيقنت أن شوكة اخترقت الحذاء البلاستيكي، ووصلت لبطن القدم.

رأت أن الوضع يحتم عليها رفع القدم الموجوعة، في نفس وقت ميلها بجذعها لتستند بيدها إلى جذع الشجرة، وبالأخرى تحافظ على اتزان المقطف، فعلت، وأشارت إلى الصغير .مد يده، تحسس مؤخرة الشوكة، وبأنامله الصغيرة قبض عليها، أيقنت بدنو اللحظة، فأغمضت عينيها، وأطلقت آهة واحدة ثم صمتت، تنصت إلى الألم، وحتى لا تقع في أسره، راحت تضرب بقدمها الموجوعة الأرض، ضربات متتالية، من أجل بث الخدر، حتى يتسنى لها الوصول إلى الوابور، عبر المدق الظاهر لها، الواجب عليها أن تقطعه، ليسلمها لجسر، الوابور في منتصفه.

بجهد وصلت إلى الباب، ولجته، وتحته حطت بجسدها، وأسرعت إلى الحذاء، خلعته، ونظرت إلى مكان الشوكة، وجدث ثقباً صغيراً، ارتجفت لعدم وجود الدم حوله، فاندفعت يقودها الخوف للابتعاد عن تسمم مقبل.

أمسكت بفردة الحذاء، وراحت تضرب بها باطن القدم، شعرت بالخدر، فوقفت ونظرت فإذا بمكان الوخز لم يشخب أي قطرة من دمها، فارتبكت، ونظرت، فإذا الأوسطي يقرب حنك المقطف من القادوس، وضوء خاطف يندلق منه..

fb/mashro3pdf

ميراث الفتنة

دخل البيت فوجد زوجته ترقص في الردهة، ظهرت له كأنها تُخرج شيطان الجسد، عرف ذلك من نشاط حركتها ومن عجنها وربها له، ولكي يُشعرها بوجوده زاد من صوت ركز خطواته، فلم تشعر، ولم تنتبه أيضا حينما افتعل السعال.

تراءت له شهية، كأنه لم يقربها من قبل، اشتعلت الرغبة في عينيه المفتوحتين، فتراجع محافظاً على وضع الجسد الراقص في الحدقتين، جاهد ألا يرتكب حماقة تجعله يفقد مبعث متعته اللحظية، ألصق ظهره بالجدار معقود اللسان، يرغب في تكذيب المشهد القريب من الاكتمال لحظة وضعها راحتيها على خصرها وشروعها في ترقيص ردفيها مع ثبات الجذع والساقين. ما أروعها. نطق داخله، وتمني أن تظل هكذا أبد الدهر وما قُدر لها من حياة. لكن كيف؟ استدرك، وأعاد النظر إلى الجسد، ثمة قميص قديم على جسدها، لم يره من قبل، بلا لون تقريباً، يميل . بتدقيقه - إلى لون التراب المعجون بالماء.

كان جسدها البض متناسقاً مع القميص رغم قدمه، يتماوج شعرها في سواده الليلي . على ظهرها السرح، تهدل بعضهُ ومال على فتحة القميص المتخذ شكل رقم سبعة، ما تحت القميص من جسدها كان بلا لون، وما كان حراً طليقاً كان خمرياً مشرباً بحمرة، وجهها كان أكثر وضوحاً، فارقه حزنه وبلادة تقاطيعه، كل شيء أصبح فيه كتاباً للشوف، مباحة حروفه لعين تجيد المفاضلة بين ما كان وما هو كائن، أهي من عاشرتني وعاشرتها؟ أين كانت؟ وأين جسدها الجامد بين يدي، من كل ما أري، أهي تولد من جديد وعقدها الرابع يكتمل؟ فورة جديدة وأخيرة لجسد يرغب في التنفس، ورشف الرحيق من حياة ستكون ضنينة بعد أن يغيب كل هذا تحت ركام من الترهل، ومحدودية الحركة .. أسكت صوته وانتبه إلى المساحة الصغيرة التي يدور فيها جسدها، كيف ألزمت نفسها بها؟ وما هذا الشكل الدائري بالذات؟ أسئلة راحت تتوالد من رحم بعضها، وللمرة الثانية، لا قدرة يملكها ليأتي بإجابات مقنعة، فما كان منه إلا أن اكتفي بالانزعاج، كونه لا يفهم، فعل هذا، وأيضا كونه يشعر بشئ يجهله، شحذ نفسه، لعمل صبرعليه، خطوة واحدة نقلها، وقبل الثانية، كان الجسد الجميل أمام عينيه، يتهاوي، في منتصف دائرة الرقص.

fb/mashro3pdf

اقترب منها، كان صوت تنفسها خافتا، بعد أن كان قويا كتنفس العداء المخترق لمدن عدة، لم يقف ولا مرة للراحة، الآن يزداد خفوتاً، ومعه يزداد خوفه، مشاهدة تأكدت لديه، فتحوّلت رغبة بث الحياة فيها إلى رغبة محمومة، فاقترب أكثر من جسدها المزمع على خيانته بقربه من الرحيل، هكذا كان ظنه، خصوصا والماء المنفلت من الجسد، والناشع من قميص قديم، راح يظهر حولها، وأصبح أكثر وضوحا بجوار اليد الملقاة في استسلام جوارها.

بينه وبينها شبران، هزها فلم تحرك ساكناً، ارتبك، ثم زعق:

قومي ،لا تغادريني.

كف عن الصراخ، وبقيت يده تهزها، وبقدر المستطاع جاهد كي يجعل دموعه حبيسة سجن عينيه، بقدر المستطاع جاهد، لكن هذا لم يحدث، ففي لحظة معينة، انهمرت الدموع، بينما هي تسترد وعيها، بإرسالها نظرات إلى وجهه، شافها فتنفس الصعداء وقال "ليس هناك فرصة متاحة للقلق".

كان من الطبيعي أن يغادرها، ويحضر كوب ماء، ثبته بين شفتيها، رشفت منه رشفات قليلة، أقل بكثير من الكمية التي دلقت على تدويرة صدرها، بفعل رعشة يده، ركن الكوب ونظر إليها، فنبت بداخله الحزن، فعانق وجهها، وجد نظراتها قريبة من نظرات المدقق الشارد خلف ضوء الحقيقة، كأنها تسأله، من أنت؟من تكون؟ألقت بما أرادت أن تقوله بصمتها، وسحبت عينيها، وأخذت تهمهم بكلمات غير واضحة، في تلك اللحظة أيقن أن الخطر منه قريب، أكثر مما يظن ويقدر، فركع بجوارها، بعدما دخل دائرة رقصها، فمنحته نظرة، احتار في تفسيرها، لم يكن ضمن ما دار في رأسه ما يطلق عليه نظرة ملؤها الاستغاثة، كل شيء محتمل إلا ذلك المعني. أكدت ما وقر بداخله، لحظة أن منحته وجهها ومعه السؤال:

. مين أنت؟

. أنا!

. أيوه.

انتفض واقفا، وتراجع مذهولاً، وراح يراقبها، وهي تستقيم، معلقة نظرها على شيء غير مرئي، من حركتها أيقن بأنها حركة من يتعلق بشخص يغادر، كانت تريد إبقاءه، حينما انتصب عودها، فردت ذراعيها ثم ضمتهما إلى صدرها، وهي تردد:

. يا مرحب بالخلبوص.

ظلت للحظات وهي تلف ضامة إلى صدرها شخصا وهميا، وزوجها يراقبها بأعصاب يجاهد حتى لا يفقدها، ورغم جهد بذله لتحقيق ذلك، شعر بدوارخفيف، وبثقل جسده على ساقيه، فأسند جذعه إلى الجدار، خشية الوقوع، وفكر. من هذا الرجل الوهمي؟

fb/mashro3pdf

وفجأة، كما وقفت راحت تجلس، وهي تشد الرجل الوهمي معها، استقرت السعادة على ملامحها، فمدت يدها لتغيب تحت الأريكة، ثم تخرج وهي قابضة على صرة، فتحتها، فظهرت حفان الرمل، وقطع محار، انتشلتها، وراحت تفرد الرمل ثم غمدت إصبعها وراحت تخط خطوطا كثيرة، ثم ألقت بقطع المحار، بعد أن وشوشتها، وشرعت في المراقبة مع إبقاء إصبعها مغموداً في الرمل، انتهت، فرفعت وجهها وقالت:

" اللي قلته كان هو الصح"

والزوج في شروده لائذ بالصمت، مفضلاً أن تكون عيناه مغلقتين، على طيفها، وهي تتراءى له، تلف كالمغزل.

fb/mashro3pdf

الـصنـدوق

اجتمع الأبناء والأحفاد حول الجد الممدد على الفراش، عيونهم معلقة بجسده الضامر، يتابعون حركة صدره أثناء خروج النفس ودخوله، تفصل بينهم وبين سريره مسافة معقولة، تكفي لتمدد جسد أحدهم بالطول.

يرفع الجد المحتضرحاجبيه؛ فتنتبه عيون المحيطين به ويمعنون النظر في بحر عينيه المعكرتين باصفرار المرض اللعين.

يعقدون مقارنة سريعة بين الوجه المغلف بكل أسباب الموت، والوجه الشاخص إليهم من خلف زجاج الصورة المعلقة في مشجبها فوق رأسه، والمصوب عينيه إلى الرف المزخرف بنقوش نباتية، حركة لا تكتمل بسبب النظرات القوية .

***

الصندوق ... كان أمامهم، يناغي عيونهم بزخارف، يحفظون أدق تفاصيلها، ابتداء من الحواف الصدفية، وانتهاء بالجوانب المرسوم عليها أشجار صغيرة، يحط عليها طير مختلف الأحجام، ورجل وحيد في المنتصف يمسك بلجام حصان.

كل واحد منهم يرسم في خياله الثروة المخبأة فيه، والتي قال عنها المحتضر إنها منذ جدود الجدود .

الأب بعد أن تكررت محاولاتهم للمسه وهم أطفال، صنع الرف، بالغ في زخرفته، واضفاء روح الجمال عليه، لدرجة أن الرسوم الموجودة على الصندوق تشبهُ الموجودة على لحم الرف.

الصندوق كان لا يبرح مكانه إلا مرة واحدة كل شهر، يصحبه الأب إلى غرفة نومه، يغلق على نفسه بابها بعض الوقت، ثم يفتحها ويعيده لمكانه، عادة لم يغيرها، حتى بعدما أصابه الهرم.

انتظروا اللحظة التي يتم فيها فض القفل الموضوع على الصندوق، وتوزيع ما رسمه خيال كل واحد، وصل ترقبهم للذروة يوم أن نظروا، وجدوا ملامحه كادت تختفي تحت ضراوة طبقة من التراب الناعم، استطاعت أن تطمس معظم ملامح النقوش والصور.

fb/mashro3pdf

في الأسبوع الأول من مرضه، كانوا يدخلون عليه، يلقي كل واحد منهم نظرة عليه، ونظرة طويلة إلى الصندوق، تجعل الراحة تحط على ملامحه.

ظلوا هكذا بدون أن تسول نفس أحدهم له أن يجتاز تلك الخطوة بأخرى .

ذات يوم، دفعت شهوة المعرفة يد أحدهم، لامس الصندوق، في البداية كاد يمنع الصوت الملح، لكن بريق الثروة المتخيلة، نهش صدره، ولم يهدأ إلا بعد أن فعل فعلته.حركته لم تكتمل، صحيح إنها نجحت في إسقاط سرسوب تراب، غادر وجه الرجل الممسك بالحصان، إلا أنها جعلت صوتا ما يخرج، يشبه لحد كبير صوت صهيل الخيل، تردد في الغرفة، وكان كافياً لإيقاظ الأب الذي وجه نظراته لابنه، نظرات كالعصا التي كان يلسوع بها أحدهم إذا ما لمس الصندوق في صغره.

بعدها طلب الأب من حفيده أن يعتلي الكرسي، فعل الصغير، وأحضر للجد صندوقه، أخذه ووضعه تحت السرير.

***

تعلقت عيناه بالأبناء، وبالأحفاد المحدقين به، خص أصغرهم بنظرة خاصة، نجح في استخلاص ابتسامة منه، غازلت شفتيه الصغيرتين.

الكل تعجب من مقدرته على امتلاك نفس النظرة التي كانت تسكن كل واحد في مكانه، وبنفس القوة والمقدرة، يستطيع أن يخفض الهامات أمامه.

الوداعة التي لاحظوها منه جعلت الأفواه تتباري في طلب الصحة وطول العمر، كلمات فيما يبدو حركت أشياءً ما تسكن بداخله، جعلته يزاوج بين جفونه.انطباق لم يستمر إلا لثوان، بعدها فض التزاوج وأطلق دمعتين، شدتا الحفيد الصغير، فهرع إليه، وألقى بجسده عليه، وبأنامله الرقيقة نزع الدمعتين، استوقفه، وطلب منه سحب الصندوق.

غاب جسد الصغير تحت السرير، ولما فرد عوده وبيده الصندوق، امتدت إليه عيون المتحلقين، كل واحد يريد أن يثقبه بنظرات نارية.

سافرت العقول اللاهثة، ترسم صورة لذهب الصندوق، بينما الجد كان يعالج قفله بمفتاح سحبه من تحت مخدته، رمقته العيون، وشبت الأجساد، وود كل واحد منهم معرفة ما به.

سحب الجد يد الصغير، دون أن يتيح له رؤية ما بالصندوق من أشياء، مسح أنامله بشئ خشن، هكذا أحس الصغير، ثم أغلق الصندوق، وأعاد المفتاح لمكانه، ولما هم الصغير بإعادته، منعه، فتهللت العيون، واستبشر المتحلقون بقرب لحظة لطالما انتظروها.

***

fb/mashro3pdf

حينما جاءت الشخرة الأخيرة، دخلوا، فإذا بيد الجد تنام على يد الصغير التي تنام بدورها على الصندوق.

سارعت العيون إلى الصندوق، استخلصوه من الصغير، وفتحوه، انزاح الغطاء، ووجمت العيون، وتركوه، وعينا العجوز شاخصتان إليه، بينما الصغير يخرج قطعة الخيش، ويقربها من أنفه.

fb/mashro3pdf

صور مؤجلة للفرجة

بدت الدرجات الرخامية كالطريق الطويل وهي تهبط عليها، والصوت ما زال يتردد بداخلها: الوقت المناسب لم يحن بعد.

هزت رأسها وقالت:

. أوانه.

هو نفس الصوت رفيق حياتها، كانت تحمله أينما ذهبت، وأينما كانت، كان قويا وصاحب البقالة القريبة من المركز، يراقبها وهي تقرأ قائمة الطلبات.

دس البقال كل حاجاتها في كيس أسود رخيص، أخرجت بك الفلوس من صدرها وأعطته ثمن ما اشترت، وغادرته، وما هي إلا خطوات حتى عادت صائحة:

. وحياة ولدك خمس علب سجاير.

وهي تغادره للمرة الثانية، سمعته يهمس لها:

. جسمك ملبن.

ارتعشت وغضت الطرف ومضت.

ولجت البوابة المفتوحة نصف فتحة، ومالت جهة اليمين، حيث مكتب الأمن، أراحت كل ما في يدها على الأرض، ومدتها إلى نفس البك، أخرجت تحقيق هويتها، أعطتها للجندي، ونطقت بالاسم، وضع عينيه على دفتره، وعندما رفعهما، كانت تغلق طوق العباءة، وتداريها تحت طرحتها، سألها:

. زوجك؟

– آه.

وعاد ليكمل تدوينه أيقنت أن أمامها من الوقت ما يكفي لإلقاء نظرة إحصائية للصف الممتد فوق الدرجات الرخامية، عرفت أن دورها سيأتي بعد الرجل الواقف في نهايته.

في مكانها راحت تعيد سيناريو ما سوف يحدث، والذي يبدأ بتفتيش الموجودات التي معها من مشرب ومأكل: الفرخة سوف يتم تمزيقها، والخبز سوف تلمه مبقور البطون، حتى زجاجة الحاجة الساقعة سوف تجدها ناقصة ملء كوب شاي

صوت الجندي قطع عليها تأملاتها:

fb/mashro3pdf

. في الصف يا مدام.

مالت لترفع الكيس، فسمعت صوت تمزق سروالها، فثبتت، واحتارت، لكنها انتصبت، واندفعت لتقف في آخر الصف، ومرة ثانية أرسلت عينيها، وبهما عدت الواقفين، واحد .. اثنان .. سبعة..

كلهم رجال وهي المرأة الوحيدة، همست لنفسها:

. كلهم كوم وأنا كوم.

في المرة السابقة كانت تقف خلف امرأة عجوز، تم تفتيش ما بحوزتها بسرعة، وتم اقتيادها إلى طرقة جانبية، تسلمت الأيدي الكيس منها، أفرغته على منضدة كبيرة، عليها فتافيت من حاجيات من سبقوها، استراحة وجدها صاحب النجوم مناسبة لفرزها من رأسها حتى منتصف بطنها الملاصق لحافة المنضدة، لمح ضغط الحافة على العباءة السوداء، فعل أتاح لتقويرة السرة أن تظهر، ولرغبة كامنة أن تشب، هي لمحت، فتمنت أن ينتهي أمين الشرطة من عمله، لكنه، بعد أن أعاد كل شيء لمكانه، وقبل أن يطلب من العسكري الواقف بجواره إصطحابها، تدخل الضابط، أمسك بالكيس، وشرع في إخراج محتوياته قائلاً:

. زيادة في الحرص، وتحسبا لدخول الممنوعات.

من تبادل النظرات قرأت تربع جسدها في عينيه، وعرفت طغيانه، معرفة تجدها في عيون الجيران، وصبية السيارات، حالة اعتادت معها خلق تسلية ما، حتى لا تضطر إلى التهاوي في قبضة دموعها القريبة... الرجوع إلى ذكري ما.

لم تجد إلا كلمات حماتها العجوز:

. السلام أمانة.

. حاضر.

. قولي له أيام وتنقضي.

أثناء ذلك، كانت تعرف أن الضابط، بخياله صحبها لغرفة بعيدة، نزع عنها كل هدومها، جعلها عريانة ملط ... وهي تستعيد نفسها، كان الضابط يقول لها:

. زوجك رحلناه للسجن العمومي.

استدارت، وهي تهبط على آخر درجة كانت دموعها تهطل.

fb/mashro3pdf

عجز

يشده الجريد المتراقص مع دفقات الهواء، فيتخيلها صبية واقفة تنتظره على عتبة أحد البيوت، فيردد:

تعالى تلات

تعالى تلات

يا تاجر الحنا

ينتبه إلى وهن صوته، والحشرجة التي به، فيكف، ويخلع عينيه، في حركة الارتداد، يقع بصره على جاره، فتنفرج شفتاه، ويرفع كتفيه ويسقطهما، يقول:

. يعني هنا خد زمانا وزمن غيرنا.

بينه وبين نفسه يردد الجملة مرة ثانية، ويعود ويترحم على أيام زمان.

. مش تجيب واحد يقلمها.

. ومين يقدر؟ بص.

يتفحص طولها، يتساءل.كيف لم ينتبه إليها؟ وحولها يُبقي عينه، ويتمني لو قام وتسلقها، رغبة يجدها ملحة، كيف؟ ومن أين له بالشجاعة؟ ليفعل ذلك. يشعر بضعفه، فيمص ريقه، ويستجمع قواه، ويهمس:

تعالى تلات

نشتري الحنة

ونحني البنات

ينظرحوله لا يحس بشيء غريب، ما عدا نظرات جاره فكل شيء يبدو عاديا.. يشده الصوت:

. مالك؟

يخلع عينيه من على النخلة، ويحطهما علي وجه جاره، يمنحه ابتسامة، ويروح يتابع ذبابة لحوحة، تحاول الوقوف على جبهته المغضنة، تركها حتى وقفت، مد يده، هشها، ثم أعطاه حق الدخان وطلب منه لف سيجارة.

يناوله السيجارة، فيدفع بها بين شفتيه يكون هو قد أشعل عود الثقاب وحوط على ناره براحة يده، يسحب الدخان، ويطلقه بواسطة زفرة قوية، ما إن ينتهي من النفس حتى يسقط يده لتتمدد على فخذه المفرودة.

fb/mashro3pdf

هو الآن في وسط السيجارة، يأخذ نفساً ثم يحبسه، وبعد لحظات يطلقه، وهو مغمض العينين، ثم يأتي النفس الثاني، فيقبض سعال على روحه، فلا يكمله، فيلقي بالسيجارة، ويدخل في نوبة متصلة.

ينادي جاره على ابنته، فتخرج، وبيدها طاجن به رماد، تضعه أمامه، فيميل بوجهه، يبصق قطعة لدنة خضراء، ويريح رأسه إلى الجدار، في وضع يكون فيه في حالة عناق مع النخلة:

. أجيبلك دوا ضيقة الخلق.

يسكت، فتعرف أنه لا يريد، فتتركه، وتدخل، فيمنح وجهه للبراح.

. مش عاوزه تتقلم؟

يقول جاره، فيسترد هو عينيه ويرد موافقا:

. آه عاوزه.

. طيب ما تجيب واحد.

. غير القلام.

. يعني ما فيش غيره!

يكتفي بهز رأسه مرة واحدة، ثم يسكت.

fb/mashro3pdf

سؤال الغفلة

انتهت الأيدي من دفعها، فتراجعت، ولما كانت الطرقة ضيقة، التصقت بالجدار، فمروا، بحثوا بعيونهم عن أشياء في طيقان الجدارين المتقابلين، أشياء تؤكد ما وقر في نفوسهم من ظنون.سألها أحدهم وهو يقوم بالضرب بكفه على الجدار ذي اللون الكابي، والروسومات المشوهة الكثيرة.

– فيه أوضة غير اللي هناك؟

أجابت وهي تلم انفلات صدرها بيديها، فيه وحدة تانية بنحط فيها خزين البيت، وحاجات قديمة ما عد ناش بنستخدمها.

. هيه فين؟

. في الحوش.

نظر إليها، فأكملت:

. على طول قدامك.

أومأ لأحد رجاله فتبع خطواته.

كان الحديث قد وصل للزوج، فثبت في مكانه، وهو مستلق على ظهره، وملاءة خفيفة مفرودة على جسده الناشف، وسط حجرة صغيرة، بها دولاب قديم بضلفة واحدة، يجاوره صندوق قديم مغلق، مغطي لحمه ببطانية مهترئة، وبينما الأقدام تعرف طريقها لداخل الغرفة، علق وجهه على الوجهين الجامدين، تصدمه أربع عيون، فيبحث عن الشعرة الفاصلة بين اليقظة والنوم، تأتيه من لكزة قوية من يد لحيمة:

. فز قوم!

يقول واليد تجذبه، تعال يا سبع البرمبة، يا راجل يا للي فيهم.

ينتصب مرغماً، فيظهر جسده المكفن داخل فانلة بنص كم، وسروال من الدبلان.

وهو بين الرجلين وعيونهما تمر على كل شيء، فكر في ذهب زوجته المحفوظ في صندوقها الملامس لإحدى أقدامهم، طلب الأذن من الرجلين،

fb/mashro3pdf

فأذنا له على مضض، فانحني، ومد يده إلى الصندوق، فأطبقت عليه أربع أيدي، مال إلى أحدهم وقال ليطمئنه:

. أمانة بس.

نظرات تبادلها الرجلان ضمنت له السماح، فمد يده في الوقت الذي تراجعت فيه الأيدي..وهو يقلب في الملابس، انتفض جسده لتأكده من وجود أربع عيون ترعي على أشياء لا يصح رؤيتها، فكر في منع عيونهم، لكن كيف؟ في العيون رصاص بارد، وشهوة شبقة قد تدفعهم لمد الأيدي والعبث في الأشياء.قال وهو يخفي كركة خفيفة، وكلوت برباط في الجنب، وفوط بيضاء في حجم كفة اليد، الموت أهون.

من الخارج جاء الفرج:

. هاتوه.

تنفس الصعداء، وهو يمضي أمام أحد الرجلين، تجتاحه فرحة، لعدم تمكن الرجلان من لمس قطع الهدوم المضمخة برائحة أجزاء غالية من زوجته، ولما أصبح في خارج البيت، انتبه إلى جمع من أهل الشارع، وبحث عن زوجته.

fb/mashro3pdf

كـلـب الـكـانـون

بينما تتقلب الأجساد على الفرش، سعيدة بدفء قليل تجلبه الأغطية، كان قد أكمل تفقد حاجياته من حِجَال وحبال، ورغيف أخفاه في جيب سيالته، استعداداً للخروج .

نور الصباح الوليد، وشقشقة العصافير الساكنة أعشاشها، أسباب كافية لمولد الغبطة في قلبه، والمحفزة على طلب الرزق الوفير . وهو يمضي، يسمع صوت قدميه تخبط على أرض ترابية، فتخدش صمت المكان.

حينما يتعاظم شعوره بثقل الحمل، يحركه من كتف إلى آخر، مع إبقاء عينيه يقظتين لأي همس قريب منه، كل ما يخشاه، الكلاب الشاردة، المتحفزة في أماكنها لكل قدم تدب وحيدة. خشيته منها، يضيفها إلى أشياء أخري تافهة، يقول عنها لا تهمه كثيرا، مرجعا ذلك إلى القلب العامر بالنور، الذي لا تربكه لحظات خوف طارئة .

قيل له: أتدوم؟

قال هي كلحظات الخوف تأتي، وتمضي، بدون أن تكسر حدة التماع بريق كلمة الرزق المترجم عمليا في ابتهاج الصغار وقت عودته، حينما يجذبون منه الكيس الحاوي على أشياء صغيرة تخصهم، هي السبب للسعي الدائم لجلب القرش حتى لو كان في حنك السبع.

يري الكلب المتحفز له، والمرتكز على مؤخرته في منتصف الطريق، فيقترب بحذر شديد، تنفيذا لوصية قديمة لجده:"إياك والكلاب الشاردة، ابتعد عنها، فإذا فشلت، فعاملها معاملة كلب الكانون".

يمد يده إلى جيبه، ويخطو بحذر، يكبح أنفاسه، وسؤال وحيد يملك عليه نفسه، ماذا لو؟ يمضي بدون أن يعطي الفرصة للخوف أن يصل لموطئ قدميه، موجها انتباهه إلى حزمة الحبال والحجال، يحافظ على انتظامها، داخله يردد غواية الأجداد.

الرزق يناديك .. أينما كان لبي نداءه.

ذات يوم، رآه أمامه، يسد عليه الطريق، وشاف شدقيه مفتوحين، ولسانه ينقط ماء، ظل محافظاً على معدل خطواته. أبداً لم يتخيل ما حدث!

fb/mashro3pdf

في اللحظة الأولي لم يشعر بشيء، لوقوعه فريسة سهلة بين يدي مفاجأة، انزاحت بعد ثوان، ليظهر حيز الاكتشاف، منه طل بعينيه على الثقوب المنبثقة منها الدماء، شاهدها بعينيه وهي تمضي في خطوط، متداخلة في مسار واحد، راح يبتعد عن محيط ما صنعه الكلب بأنيابه.

حاول إخماد الينابيع، لكنه فشل فأسلم جسده لجدار بيت قريب، داعبه الحذاء، فنزع فردة، وتحت ضغط الألم قام بضرب الثقوب، ضربات جعلته يكتشف خدر اللذة في الألم، فصعد من قوة ضرباته، كان يمكنها أن تستمر، لولا كلمات وصلته من رجل عابر، عتقته الأيام:

. يرحمك الله إن كان الكلب مسعورا، وإن لم يكن فالنار علاج له.

لمس صدق كلام العجوز وتراً في نفسه، فأخرج علبة الثقاب، أطفأ نيران أعوادها في الثقوب ثم لف الساق الموجوعة بشال أبيض، وعاد إلى البيت، فيه تحاشي نظرات زوجته، خشية أن تحط يدها على مكمن انكساره، حافظ على وضع سياج بينه وبينها، مسافة خطوتين، نظرات جده، كانت قريبة من البقعة المثقوبة من جلبابه بعدد أنياب الكلب، جذبه إليه، وقال له:

. لم تتعلم بعد.

انتابته نوبة خجل، ففضل السكوت، ومنح جده فرصة للكلام:

. ألم تجلس بجوار جدتك؟

قال:

. جلست.

. بجوار الكانون؟

قال:

. كثيرا.

– ورأيت الكلب؟

. كان يهز ذيله.

. فقط.

. يتركها إذا ألقتْ له شيئاً يؤكل.

ابتسم الجد، وأخبره بأن التعميم يفسد الأشياء.

تقلصت المسافة بينه وبين الكلب، قال: هذا وقته، ودس يده في جيب سيالته، يُخرج نصف الرغيف، يلقي به إلى الكلب القريب من إعلان ثورته، ويمضي بدون أن يعيره أي نظرة أخرى، فقط يحافظ على انتظام ركز خطواته .

fb/mashro3pdf

يتخفف من ثقل الوحدة إذ يلوح من بعيد السوق. فيتحسس حافظة نقوده، وأمام كوة صغيرة في جدار الغرفة الواقعة بجوار الباب، يريح اللفة، يخرج من جيبه ثمن تذكرة الدخول، كما اعتاد "خمسين قرشاً ". يردها له الرجل، ويخبره بأن ثمن التذكرة، تضاعف، يهم بالاعتراض، لكنه يلمح طيف جدته يتراقص، خلف الرجل، فيبتسم، ويقول:

" لكل واحد نصيبه "

يدفع ويدخل.

في نفس مكان جلوسه يريح حمولته، وعلي جوال قديم يرصها، وبينما هو ينتظر، يلمح حفنة من الناس الذين يطلق عليهم شر الطريق، يقبلون وفي أيديهم الهراوات، بغرض السيطرة على مقدرات السوق.

من مكانه، يراهم، يقفون بجوار الواحد، يحيطون به، يقلبونه، ويأخذون منه الفردة، ومن يمتنع، يطرد، ويضرب.

يقترب منه أحدهم، بيديه يقلب في البضاعة، تابعه وهو ينتشل من الكومة أشياء كثيرة أعجبته، وبنفس طريقة المتابعة، يراه يدس في يده أربع بلحات، ويهمس:

. بالهناء والشفاء

تضيق الدنيا في عينيه، فيهم بالوقوف، يلمح جدته تبتسم له فلا يكمل وقفته، يجلس ويحني رأسه، ويتذكر الوقت الذي أفناه في فتل ما أخذ منه فيرفع رأسه، يري على ظهر الرجل جده، وهو يركل كلب الكانون، فيقوم ...

fb/mashro3pdf

أنــثــي

بعد أن قضيا نصف نهار في التجوال على البيوت، نظرت إليه وقالت:

. شايف البيت اللي هناك.

اقتربا، فظهر البيت، واجهته زرقاء زرقة السماء الصافية في يوم شتوي دافئ، شرفاته مغلقة، وبعض الملابس منشورة في مشجب البلكونة، من بين الملابس لمح عباءة تزينها الرسوم على الصدر، مصادفة جعلته ينظر إليها ويقول:

. بيتك؟

هزت رأسها، وتقدمت من البيت، دفعت المفتاح في القفل، بينما هو تراجع خطوتين، ليصبح في منتصف الشارع، المعدومة فيه الحركة، إلا من بعض كلاب ضالة تعبث بجوار بعض الجدر، وسرب من فراخ راحت تعبر عرض الطريق، قادمة من دغل نخيل متجهة لباب بيت مفتوح. وصله صوت صرير الباب، فعاد والضلفة تجري على البلاط، ألقي بنظره على مجاز أصبح طوع عينيه.

. تعال.

نادته وجسدها يتخطي عتبة صغيرة.

شافت تردده، فمدت يدها للضلفة الثانية ففتحتها، بثت روح الاطمئنان فيه، فكسر خوفه ودخل، جلس على الكنبة المواجهة للمندرة المغلقة، اقتربت منه، ضربت يدها في صدرها، أخرجت ورقتين مطبقتين، نظرت فيهما ومدتهما، وابتسامة تغازل شفتيها الرطبتين، قالت:

. انقل الأسماء.

لم تنتظر رده، وتقدمت من المندرة، أدارت الأكرة ودخلت، أوصدت الباب خلفها. بقي وحيداً يرافقه قلق يطرق رأسه، تصاعد وصوت حفيف يصل إليه من المندرة الموصدة. إنها تغير ملابسها. همس، فسرت ارتعاشة خفيفة، تصاعدت، فشعر بالساكن بين فخذيه ينتفض، لإحساسه بجسد لم

fb/mashro3pdf

تحرث أرضه جيداً، سنوات قليلة ذاق فيها طعم النوم بجوار رجل، اختطفه فشل الكبد، فرحل مرغماً تاركاً لها أربعة عيال ثمرة سنوات زواج، لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

خرجت وعلي جسدها عباءة ملونة بورق الشجر، تحتها أشياء بدت واضحة، كانت مختفية خلف الأردية الرسمية.. مألوفة بدت له كونه اتخذها في ليال كثيرة حقل تجاربه، اقتربت، فمال والتقط الورق المتسرب منه، بينما هي ابتسمت وطالبته بأخذ راحته، وتركته ودخلت لجوف الدار، وصله صوت خرير الماء متداخلاً مع صوتها:

. تشرب شاي، قبل ما تأكل لقمة على ما قسم.

قال إنه يشرب شاياً فقط، وسكت، بينما تصله أصوات غسل الأكواب، وفتح وغلق أرفف المطبخ، وخربشة قط ضخم، يعافر من أجل فتح باب المندرة المقابلة، يكلل جهده بالنجاح، فينفرج الباب، ويري التفاصيل المتاحة من المندرة: ثمة سرير لا يسع إلا فردا واحدا، مفروش جيدا، عليه تتناثر ملابسها التي أمضت على جسدها نصف نهار، وفوقه، حينما ارتفع بنظراته، عانق صورة زفافها، خص الزوج المبتسم والمرتدي حلة بيضاء بنظرة، عمقها، فاكتشف جلوسه على كرسي من الخيزران يستقر على بساط أخضر، ترتكز عليه قدمان في كعب عال، تسلق الساقين فالصدر، والوجه المنمق والمشرق بابتسامة، كل هذا تبدد حينما رأي يدها اليسري تمسك بقمة كتفه، كطفل يخشي أن يضيع لو ترك يد أمه.

حاول جاهداً أن يكون متزناً وهي تضع صينية الشاي، عليها كوب واحد.

. اشرب.

تقولها وتدير له ظهرها، فيري مؤخرتها المتوسطة، تبرز قليلا عن مستوي ظهرها، مص ريقه، وكأن الأفكار ما تريد أن تتركه، راحت تذكره بأنها أرملة، وبأن الشيطان يلعب بين أصابعها، وليس هناك حبل ليشد، وكونها امرأة جربت فهي أكثر شوقا للفعل، سكت ونظر حوله، كانت أصوات غسل الأطباق تأتي إليه، وضع كوب الشاي الباقي فيه الكثير، وخرج، أسلم قدميه للريح، ركض في الشوارع، لم يكف إلا وجسده ملقي في بيته، يفكر في ردة فعلها في الصباح..

fb/mashro3pdf

رائحة الخبز المحترق

جمعتْ الصغار الثلاثة من أماكن متفرقة من الدار المكونة من غرفتين: إحداهما بسقف من الجريد والأخرى تطل على السماء..بلهجة آمرة جعلتهم بجوار بعضهم البعض، كل واحد أمامه كوب زجاجي فارغ، تركتهم ودخلت الغرفة الثانية، رفعت غطاء البرّاد المدفون حتى منتصفه في حفرة جمر القوالح، لسعتها نار الغطاء، فرمتْ به، وألقمتْ إصبعها الموجوع فمها، وبدأتْ تمصه، بين كل مصة وأختها كانت تخرجه، وتهزه في حركة بندولية . استكان الألم، فمدتْ يدها في شقّ الجدار، سحبتْ علبة الشاي ، أخذتْ منها مقدارًا معلوما، ألقتُه في حَنَك البرّاد، وبسرعة جذبتْ ذيل جلبابها الفاقد لونه، وقبضتْ على أذن البرّاد، وانتظرتْ حتى نَضَجَ الشاي، وقبل أن يفيض السائل على سطحه الخارجي، رفعته.

نَصَبتْ طولها وتحركتْ لركن الغرفة، انحنتْ على قُفَّة مرفوعة على ثلاثة قوالب متخذة شكل المثلث، رفعتْ الغطاء، لم تجد تحته إلا قطعة واحدة من الخبز، لهج فمها بالحمد، وطلبتْ الفرج الذي هو قريب، وبقطعة حطب جافة، قَلَبَتْ الجمر المغطي بطبقة رماد، ونفخت، فأطلق الجمر لهبا بألسنة صغيرة، عليها وضعتْ قطعة الخبز، ورفعت البراد، ولما عزمت على النهوض، شد انتباهها قطٌ يرمقها بعينين براقتين، زعقت فيه، لتصرفه، تراجع القطُ، وانكمش في ركن قريب.

خرجتْ، وضعتْ البرّاد بين ثلاثة أكواب، وصبتْ الشاي ثم قامت إلى سلك التليفزيون، فَصَلَتْ بين طرفيه العاريين، وأدخلتْ كل طرف في عين من عيني"البريزة"، صدر منه وشيش، عاجلتْ سطحه بضربة قوية، فظهرت الصورة غير واضحة، بضربة ثانية سددتها له، وضحت واستقرت لتظهر المذيعة بوجهها اللامع، تدير حوارا مع رجل يرتدي أبيض في أبيض على رأسه طرطور أبيض، بينهما منضدة، تستقر فوقها تورتة من دورين هرمية القمة.

رائحة الخبز المحترق، جعلتها تشد عينيها من فوق فخذي المذيعة، وتهرول، لتقَلَب قطعة البتاوعلى وجهها الثاني، وبينما تميل بجذعها لتعيد ورقة الشاي إلى مكانها في الجدار، كان القط تحت يدها، فأسقطتها على ظهره، فشب، وكاد أن يصيبها بمخالبه، جزعتْ وتمتمتْ: آه يا ملعون.. طيب.

تمرر عينيها على براح الأرض، تجد بالقرب منها فردة حذاء، تجذبها، وترمي بها القط، ليغادر الغرفة، فيمرق من الفتحة الواصلة بين الحجرتين، ويمر بين الصغار، ويأخذ في وجهه البرّاد وكوب الصغير، فيصرخ، يشدها صراخه من أمام الكانون.

fb/mashro3pdf

تميل على الصغير، تكشف عن البلل، تجد منطقة في حجم كفة اليد محتقنة ومحمرة، ومحاطة بطوق من الجلد الغامق المحروق، بطرف جلبابها تمسح دموعه والمخاط الخارج من منخاره، وبخرقة مبلولة بالماء البارد بعد عصرها جيداً تُسكت صرخات الألم المتسربة من منطقة ملتهبة بحجم كفة اليد.

ولتهدئته، أخذتْ من كوبي البنتين نصيبا معلومًا، ما أخذته كان كافيا لإعادة كوب الصبي إلى ما كان عليه.

تتذكر قطعة البتاو التي راحت تسرب رائحة الخبز المحروق بشدة، فتدخل الغرفة، ترفع قطعة الخبز، تجد سطحها قد تفحم تماماً، ترمي بها وتخرج.

fb/mashro3pdf

الـجـانـب الآخـر

على سطح البيت كنت ألهو مع وجوه صنعتها من طين، وكنت أتابع جدي وجدتي، فلما قامت جدتي، أدركت بإحساس طفل الخامسة، أنها تستعد للخروج، بسرعة تركت السطح والوجوه، ونزلت. كانت الشُّقة في يدها، لم تطوها بعد، والكيس ملقي بالقرب من قدميها، فاندفعت إليها، أحطتُ ساقيها بذراعي، فأبعدتني، فشرعت في الصراخ، وركل الأرض بقدمي، استقبلت تصرفاتي بوجه محايد، وهمت بمغادرة المكان، طالبة النجدة من جدي المشغول بجدل حباله.

طفل صغير بين جد يكن له كل الحب، وجده ما زالت تعطف عليه عطف عابر على سائل مد يده، لأنه بعد أن جاء بدقائق، رحلت أمه، وخلاصه بداخلها، ربما يكون التصور به قدر من الخطأ، لكنه تغير بعد هذا اليوم.

قالت لي وهي تشير إلى مكان جلوس جدي:

. اقعدْ هنا!

قبل هذا اليوم، كنت أراقبها وهي تخرج، بدون صوت أودعها، وأظل أنتظرها، أحيانا كثيرة أغفو بجوار جدي على المصطبة، وفي الصباح تعطيني نصيبي من كعك، وفاكهة.

أما تلك المرة فكانت مختلفة أظن أنني كنت أود التشبه بعيال كانوا يمرون من أمام بيت جدي، يأتون من بيوت متناثرة بين الحقول،يقف بعضهم أمام البيت، ويطلبون الماء، لسد عطش الصغار، كنت أجري وأغرفه، وأعود وعيني على اليد الصغيرة الغائبة في قبضة أخري كبيرة، أمد الكوب وأقف غير بعيد، أراقب اليد الكبيرة وهي تقرب الكوب بهدوء من فم الصغير، بسعادة يرتشف الماء، وبعد أن يفرغ، تبدأ نفس اليد بمسح ما تسرب من ماء على جانبي فمه، أو هدومه.

جاهد جدي بابتسامة اتسعت، فغيرت من ملامح وجهه، اتبعها بقوله:

. تعال يا واد الشقة.

جلست بجواره، وانهمكت جدتي بلف الشقة حول جسدها، ولما بدأت بالتحرك دفعني، فانتبهت إليّ، ولم تتكلم، ومضينا نقطع المسافة بين الحقول وبيوت البلدة. وحينما اقتربنا من البيت المقصود، قام الرجال من

fb/mashro3pdf

فوق الدكك ليرحبوا بها، صنعوا بيني وبينها سدا، شقته ومدت يدها إليّ، وقبضت على ذراعي، قبضتها استخلصت آهة واحدة. بعدها استجمع الصغير قواه للتحرر من قبضتها، حركة لم تعجبها فزادت من قبضتها، وجذبته نحوها وأوصته أن يكون قريبا منها، ولم تتركه إلا بداخل البيت حين أسلمته لجدار قائلة:

. اقعد هنا!

رضخ الصغير لكلام جدتي والتصق بالجدار، وظل في مكانه لا يغادره، منصتا لصوتها وهي تردد أغنيات التحنين، التي تدور حول شرف زيارة بيت الله الحرام، والروضة الشريفة .. مع إنصاته، كان يصنع لنفسه تسليتها من أشياء كانت متاحة أمامه، وقتها كانت قطع البوص، قشرتها، وصنعت من قطعها الداخلية عرائس وجمال، وحزنت يومها، لأنني رغبت في تشكيل وجوه لرجال، فكرة لم تكتمل لأنني لم أعرف الطريقة.

بعد تلك المحاولات لصنع تسليتي الخاصة، عدت إليها، وجدتها في منتصف حلقة من النسوة، حبات العرق معلقة على جبينها المشرق والمزدان بدق دائري أخضر، تبدو الحبات أكثر حضوراً حول العينين، وفوق الوجنتين، تتجمع الحبات في خطوط تمتد على وجهها الأسمر، هي لا تهتم بما يدور، شغلها الشاغل وضعته في جعل النسوة في حالة من حالات الغياب، وأنا كنت كذلك لكن في دنيا أخري.

بعد ساعات تكون عودتنا، أسير بجوارها، بيننا مساحة ما، كانت كافية لإقامة سد من الصمت، نجحت آهة خرجت مني في هدمه، فمدت يدها، ولُقفت يدي في حضن يدها، وكان الحلم ..

الطريق كان معتما، من حولنا تتردد أصوات كثيرة ما بين نباح لكلاب شاردة بين الحقول، ونقيق لضفادع قريبة منا تسكن بطون قنوات الماء، كنت أشعر بها قريبة، رغم العتمة، لكنها كانت مزعجة لأجساد منهكة، هي في أصل الوجود المبصر أشجار سنط تنمو على طول السكة المتربة، الخطوات . دائما . بعيدة عنها، في الجانب الآخر من الطريق، تجنبا لشوك قد يخترق بطن القدم بقسوة شديدة بسبب قصره وصلابته.

في ذلك اليوم، ما كنت أهرب منه كان في انتظاري، شعرت به، فأطلقت آهة احتضنها الخلاء، فغطت على عواء الكلاب ونقيق الضفادع، بعدها وقفت على قدم واحدة بينما الموجوعة مرفوعة، في وضع المستعد للعب الحجلة، فالشوكة اخترقت الحذاء، ووصلت لبطن القدم، فغاصت فيها..

الصرخة نتج عنها هلع صادق من الجدة، صاحت:

. ما لك؟

لهجتها دفعته إلى اختصار مسافة كانت بينه وبين جدتي، والتصق بها. لأول مرة أحس الطفل الصغير بقشعريرة تسري في بدنه، تضاعفت حينما شرعت اليد الملهوفة بتحسس قدمه.وضع بث الاختلال في جسدي، فكدت

fb/mashro3pdf

أفقد الاتزان فملت واستندت على ظهرها بيدي، لحظات وتبينت فداحة الخطر، شهقت:

. يا رب سلم.

تحركت، فأمرتني: اصبر!

وراحت تختار الوضع المناسب لنزع الشوكة، وقتها كانت دموعي تنهمر في صمت، لتبلل ظهرها، وثمة ماء كان يتساقط على أجزاء من ساقي العاريتين، حتى الآن، الحيرة تقتلني، أهي منها، أم مني؟

fb/mashro3pdf

سرعان ما يتكلم لاحقاً

يتحرك، رغم العتمة الجاثمة في البيت، كأنه يتلمس طريقه بواسطة سراج معلق، ويفكر" الليلة خانقة من شدة الحرارة هذا يبشر بليلة مقلقة ".

يخلع الجلباب، يكوره، ويميل، ليضعه في المشنة الخاوية، ومن جوارها يلتقط الفتيل المغموس في الشحم، وكذلك الحجرين، يضربهما ببعض، ويقرب الفتيل، فيشتعل، يخيل إليه أن الجدران الطينية، تتحرك لتطبق عليه، يريح ظهره إلى الجدار، ويسحب الجراب الذي كان في يده،وينصت إلى الفحيح المختلط بصوت الجنادب والنباح لكلاب هربت من البيوت سكنت الخلاء، ويقول:

. يكفيني أنهم حولي يأخذون بصوتي، وأنا هنا.

يتفقد الحجرة التي يعرف أنها لمت جسده كثيراً، وجعلته يعيش بين أربعة جدران، تحافظ على خصوصيته بديلاً عن النوم في الخلاء، وفيها ضم جسد زوجته، وفيها انطلق صراخ أولاده.

يمدد جسده، فتبدو له السماء صافية من فرجات السقف المجدول من البوص والجريد، فينعكس ضوء القمر على وجهه الستيني المبرقش بآثار جدري قديم والناضح منه شقاء ممتد.

النظرات المتطلعة تنطوي على تركيز واعمال الفكر، تدلل عليها ابتسامة ساخرة، يطلقها فمه، وكلمات بدأت تمشي على لسانه.

. اصنع رغبتك في العلن.

ينتفض لشعوره بوطأة الحر، فيقوم من رقدته هرباً من فكر بدأ يتربص به.

***

يخرج الزمارة، يتفحص مكوناتها المتناثرة في الجراب، يتفقد كل قطعة على حدة، يقول لنفسه " زمار الحي ما عاد يطربهم ".

يعيدها إلى جرابها، يغادر مكانه، يلقي نظرة على براح الأرض المحروقة، يري السواد الجاثم على أديمها، فينقبض قلبه، ويعود إلى الجراب، يمد يده فيه، يشعر كأنه يعبر حاجزاً مائياً، تغيب يده، الحاجز يتضخم، كلما جدف بيده محاولاً الخروج بها، جذبته نداهة البحر، تحيط بها، تطبق عليها، تسكنها داخل الجراب، فتسري قشعريرة خفيفة، فيسحبها بسرعة، فتخرج وهي قابضة على قطعها. تستوي أمامه: القصبة المنتهية بالبوق، والمطعم، والقشة .. يرفع القصبة، طلاؤها تقشر، تحول لونها . الذي كان يشبه البن المحروق . إلى لون جديد، يقول لنفسه:

fb/mashro3pdf

. شاخت كما كبرت.

يركب المُطعم والقشة بالقصبة، فتستوي أمامه، تناوش عينيه، تغريه، تذكره بأيامها، وضمة أنفاسه تحرق جوفها، فتكتوي وتتلوى بين يديه، أسيرة لتلك الأنفاس التي لا تدعها تسكن فيها طويلاً، تفرج عنها فتتردد أصداء النغمات في القلوب المفتوحة فتصاب أجساد الثعابين بهلوسة الرقص.

يتنهد ويضمها لصدره ويقول:

. عُمر.

مازالت بين يديه تعابثه، تستفزه، كما كانت تفعل أيام عزها، يرفعها، فتستوي أمام عينيه، تسرب إلى أنفه رائحة خشب الجوافة المصنوعة منه، فتهب نسائم طرية، يتخيلها بين يديه، بين شفتيه، وبعناد يستجمع قواه، يدفع بكمية كبيرة من الهواء، فيخرج الصوت نشازاً، تتفكك أوصاله، ويعاود المحاولة، ينجح، ليخرج صوتها قويا، فيندفع ينفخ، وهي تطاوعه، وهو بالتدريج يسير ببطء ليصل إلى ذروة اليقظة. يصلها الآن، فيكف عن النفخ، ويمد يده إلى حنك الجراب يفتحه، تطل الثعابين، فيوسع لها الفتحة، فتخرج، ويعود إلى النفخ.

...

المشهد الآخذ في التنامي يجعله كالمضروب بالسوط، يجاهد لكي يبقيه أكبر وقت ممكن، فليس هناك متسع ولا وقت إضافي لإعادة الكرة، هي المحاولة الأخيرة والتي لا بد لها أن تفلح وتعيد إليه نفسه الهاربة، والرافضة الانصياع لمبدأ المشي بجوار الجدر، هكذا يعلم .. لذلك يستمر في النفخ بدون أن يمنح نفسه أي لحظات ليلتقط أنفاسه، مكتفيا بفعل هذا في وقت واحد مع النفخ.

...

في بداية المشهد لم يكن يهمه إلا الصوت وقوته، أما الآن فكل انتباهه مع الثعابين التي دخلت حلبة الرقص بنشاط زائد. هكذا تكون الحياة من دون حواجز، من دون خوف، الآن يمكنك أن تفرح بعودة الحياة التي كانت بداخلك، وبعد الآن لن يكون هناك ذلك الارتجاف الذي كان يقيدك، ويمنعك من فعل أي شئ، حافظ على جذوتك، اجعلها دائمة الاشتعال، إياك أن تخبو، إياك يا على .. فرصتك الأخيرة، لا تتركها تفلت من بين يديك، كم من فرص ضاعت؟..الكثير، كانت في قمة ظهورها تثير الكثير من التحفز، ومع الأيام تقول لا فائدة، إياك يا على وشعور العجز، تعرف أن السبب هو ذلك التاريخ الذي صنعته الأيام، ولم يتدخل أحد فيه، ولم يحاول ولو محاولة صغيرة في تغييره، اعلم أن الإنسان يصنع تاريخه، فعليك بالنظر إلى الأمام ، ودع الماضي، حتى لا يتوه منك الحاضر وتفقد الطريق إلى المستقبل.

الصوت الآن في أحسن حالاته، والفحيح الذي راح ينتقل من مكان إلى مكان، أصبح واضحاً، يعلن عن حضوره.

fb/mashro3pdf

يجعل الزمارة طيعة بين شفتيه، تردد نغمة:" الحياة الذليلة هي الموت بعينه "

fb/mashro3pdf

نــوبــة صحيــان

نظرتْ من الشباك، رأتْ انسحاب أشعة الشمس الأرجوانية، من على جدار البيت المقابل، فهبتْ من رقدتها بأنفاس متسارعة، طلبتْ فتح كل الأبواب، والشبابيك ليدخل الهواء، على وقع تلك الضجة، قام أهل الدار جميعاً، تعلقت العيون بها وهي ملتصقة بالسرير، أشارتْ إلى زوجها، فمال نحوها، قالتْ له إنها تريد أن تتمشي في البيت. أوقفها بينه وبين ابنه، وخرجتْ من الغرفة إلى المجاز،طافتْ عيناها علي كل شيء، فلما وصلت إلى الزير، مالتْ إلى ولدها وقالت:

ـ هنا، قعدتك وكبشت من الطين، ولطخت جسمك الملدوغ بقرص الزنابير.

وسارتْ حتى بداية السلم، وأشارتْ:

. كان كانوني هنا.

نظرتْ إلى زوجها، وأكملتْ:

. فاكر قعادنا في طوبة..

وأخذت تبكي، فخارت قواها، فعادا بها إلى السرير، لم تطلع الشمس إلا وهي جسد ساكن لا أنفاس فيه، والبيت يعشش فيه الحزن.

في غرفتها، جرت طقوس تغسيلها، أثناء ذلك كان زوجها يسند ظهره لجدار البيت المقابل، يطفئ سيجارة بعد أخري ويفكر في سنينها التي تحولت إلى عيال ملأت بهم الدار، كل واحد منهم قطعة منها، ومع مرور الأيام، أصبحت لا تغادر البيت إلا يوماً واحداً وأحياناً بعضاً منه، حتى في ذهابها لأهلها، لم تكن تمكث هناك إلا ساعات، يجدها جالسة كأنها تقعد على قطع من الجمر، سرعان ما تقول:

. نروح بيتنا.

تضحك أمها وتقول:

. بقي لك بيت.

تلسعه السيجارة، فيعود من شروده، فيري نعشها فوق الأكتاف، يهم بمغادرة عتبة الباب، وقف متردداً بعض الوقت، والحيرة تعبث بالوجوه، حيرة لم تستمر كثيراً، اندفع النعش بحامليه لجوف الدار، امتد الهرج والصخب خارج الدار وداخلها، وتوترت الدماء الجارية تحت جلودهم المكوية من نار شمس الجنوب، زادت والنعش يلف ويدور أمام الدار، رمي السيجارة، وتقدم منها، بينما الأفواه تردد:

fb/mashro3pdf

. الجمل هام للنبي.
جمع شتات نفسه الشاردة، واقترب من النعش:
. يا أم الولد، مع السلامة.
استقر النعش فوق أكتاف حامليه للحظات، ثم تحرك .

fb/mashro3pdf

كـــا بـــو س

فجأة تحركت المياه الراكدة في بيت سيد البلدة، ومنه خرج الخبر وأخذ يجوب كل شوارعها: العمدة سوف يرزق بطفل بعد سنوات من الزواج.

فرح الناس بالخبر إلا السيد. فور علمه، ترك البيت، جال في الشوارع، قبل أن يسلم جسده للمكان الذي سيحضن خوفه .وقف ونظر إلى البساط الأخضر النائم تحت أقدام البيوت، انتهي فراح يفاضل بينهما. أي جهة سوف تكون شاهدة على ما يدور بداخلي من أفكار. فكر. النهر مكان لا يعادله مكان.

عبر البساط الأخضر، وصل للبقعة المفضلة لديه، وجلس،أمسك بقلبه السؤال: بنت، أم ولد؟ هو مقتنع أن العائلة تحتاج إلى ولد. نعم أريده ولداً. قالها وألقي بنظر إلي مياه النهر، ثم كان السؤال الثاني: ماذا لو كان المولود بنتاً؟ هزه السؤال، فقام من مكانه، وأعطي ظهره للنهر، وعلق عينيه على البلدة وبيوتها، وفكر. "أترضي الناس بما سوف يكون؟ ويسلمون بالأمر الواقع، أم تكون هناك معارضة، تملك قدرة تقويض سيطرة الأسرة".

أتعبته الأفكار، فأسلم وجهه للأفق، رأي صقرا يقطع المسافة بين نخلتين، أعجبه ما يقوم به من تنقل بينهما، بحركة تسير بانتظام، يحافظ الصقر على جناحيه مفرودين، تشبع من المشهد فابتسم وقال إنه يصلي، ثم تابع همسه .

"كأنه يقول لي افرح وعش اللحظة، وما كتب لك سوف يكون، لكن في الزمن المناسب، والمولود سيكون في منعة وحماية، هكذا يقول المشهد، هكذا تقول الأعراف لمن يري صقراً "

عاد إلى بيته، برأس مثقل، فأسلم نفسه لنوم عميق، تردد صداه في جنبات غرفته، لم يجرؤ أحد على دخولها حتى زوجته.

ايقظه كابوس لعين، فجلس في غرفته زائغ العينين، لا يقدر على مص ريقه، يري الماء قريباً منه فلا يمد يده، ليتناول الكوب، رهبة مما رأي.

استجمع قواه الخائرة، زعق منادياً، دخل عليه كل من في البيت، شقت زوجته جموع المتحلقين حوله فزعة، اقتربت بوجهها الخمري المشوب بحمرة القلق، شاهدت وجهه الغارق في العرق، حط في قلبها الانزعاج، فطلبت من أحد الخدم، إحضار طبيب العائلة، لم يمنعها السيد ولم يعترض، ظل ممدداً، وهي بجواره، يتنقل بعينيه في سقف الغرفة، وما رأي وشاف في منامه يملك عليه نفسه.

fb/mashro3pdf

دخل الطبيب، وبرفقته مساعده، اقترب من السرير، وبدون أن يكلمه، سحب يده .قال:

. نشوف صوت القلب.

اندهش الجميع وهم يرون الطبيب، يبتسم ويقول إن السيد لا يعاني من شئ، فقط صوت القلب، يشير إلى توتر ما، وسكت، ثم طلب من الجميع مغادرة الغرفة، وبقي معه .وطلب من مساعده إخراج مسحوق النبات المخدر، انزعج السيد وصرخ منبها:

. علاجي مش في المسحوق، علاجي في كلام يفسر لي الكابوس.

. كابوس؟

. أيوه كابوس.

يمد يده، يضعها على فم السيد، والهلع يكاد يقتله، وهو يصرخ:

. لا يا سيدي، متقلش غير لما نحصنك.

حرر يده:

. سامحني، خوفي هو السبب.

ثم التفت إلى مساعده، وأمر أن يحضر الخبز الطازج، والمر، وأعشاب خضراء، ونبيذ.. مزجها، فصنع مزيجاً، راح يدهن به وجه السيد فلما انتهي قال:

. نصف الحماية

. والباقي؟

. مش عندي.

. ومين غيرك؟

. المنجم، فتفسير الحلم سر من أسرارهم، وكما تعلم يا سيدي، الأحلام مش كلام البشر.

طلب الرجل، وجلس ينتظر على أحر من الجمر.

دخل الرجل في حلة نظيفة، فخرج كل من في الغرفة، بناء على طلبه، فلما خلت، وأصبح وجهاً لوجه مع السيد، قال له:

. خير.

ضحك السيد وقال:

. أنت اللي يقول خير ولا شر.

. طيب قول.

fb/mashro3pdf

أغمض عينيه، وقال إنه رأي نفسه، يجلس على شاطئ النهر، أمامه لحم مشوي يأكل منه، فلما أكل، نام، وعندما استيقظ فإذا بقزم بجواره، خاف منه، فهرب، وتحت شجرة جميز عجوز وجد طفلاً صغيراً، أعجبه شكله، فاقترب منه، وجده يحمل نفس ملامحه، فرح به ولما هم بحمله إذا بالصغير يطلب منه جعة ساخنة، فأخذ ينهل منها.

صمت، فعرف أن ما تبقي هو ما يسبب كل هذا الهلع المستقر على ملامحه، فطلب منه أن يكمل، فقال إنه بعد اجتياز باقي المسافة، والتي تعادل ما قطعه وجد الطفل، عندها نُزعت منه الحياة، وكان بين يدي الناس عارياً.

أفرج الرجل عن ابتسامة محدودة، وقال يوصيه:

ـ قبل ما أتكلم لازم يكون راسخ في قلبك، فالكنز يا سيدي في القلب، كما تعرف، وكما تعرف فجذور عيلتك في بلدنا ثابتة في الأرض و...

يقاطعه السيد، وهو يكاد يفقد صبره:

ـ كل ده أعرفه.

يضحك الكاهن ويقول:

ـ ما دام الأمر كده، فالأمر بسيط.

مندهشا:

ـ كيف ؟! وأنت بمقدمتك زدت صب الزيت على النار.

ينظر إليه، يثبت عينيه في عيني الكاهن ويتابع:

ـ تعرف الملح بالطبع، الملح اللي ما يستساغ الأكل بدونه، والملح ما زال في راسك، قول ما تخفش.

قال الرجل إن ما سوف يبوح به ليس من عنده بل هو علم حصل عليه من سابقيه، وسكت، فشعر السيد بتردده، فما كان منه إلا أن قال: الكابوس وقع، ونصف الحماية تمت، وميضرش لو فسرنا.اختلجت شفتي المنجم، وشعرأنه قد يفقد السيطرة على نفسه، فبحث عن شيء يتعلق به لم يجد إلا المقولة التي تفوه بها: الأحلام ما هي إلا ترجمة لما يدور.

وكسر حاجز صمته، وتكلم ، وأخبره أنه حينما أكل من لحم التمساح فهذا يعني أنه على أبواب أيام سعيدة، وأما القزم ووجوده، فتفسيره أن نصف عمره قد فات، ولم يبق إلا النصف، والولد ولده، وشربه النبيذ، فنذير شؤم، يقول إن المتاعب سوف تلاحقه.

ـ اللي قلته يكفي

أشرق وجه المنجم، وأصر علي أن يلقي بأخر تعليماته، فطلب بصنع ثعابين من الطين توضع عند الأبواب، حتى تمنع الكوابيس من أن تأتي مرة أخري.وعده السيد بفعل ما قال.

fb/mashro3pdf

في المساء كان السيد يمسك بكوب عصير أودعه سم الأفعى، وبيده يقدمه لزوجته، بينما السؤال يعود ... ولد...أم ....

fb/mashro3pdf

فـرصة أخـيـرة

نظر إليه، خص وجهه المسحوب، المغلق أمامه، والمحايد، بوابل من النظرات المتلاحقة، يبحث عن بارقة أمل، تقول له إنه الفاعل، لا يريد تصديق تل الورق الذي أمامه، والمكتوب بمداد لم يجف بعد، كل ورقة تمنحه قناعة أنه هو ولا أحد سواه من تجرأ وقتل البقال .

يجلس أمامه في هدوء، يرتشف شاياً طلبه له، وسيجارة ينفخ دخانها، نالها من العسكري، تسكن بين إصبعين، لا أثر لرعشة فيهما. يتابعه المحقق، مفكراً في وسيلة تتيح له اختراق الرأس الساكن، ليعرف ما فيه. من أين لي بمثل هذه المعجزة ؟ قالها وطلب من العسكري سحب المتهم، وبعدها توجه إلى استراحته ؟ ليتمدد على الكنبة، ويكمل قراءة رواية كان قد بدأ بتصفحها. أين وقفت؟ نعم .. أين وصلت؟، يفر الورق، ويقلب فلما أعياه البحث، فتح ورقة وراح يقرأ، لحظات وشعر بالإرهاق، قام، عرض رأسه للماء البارد، ثم خرج، ليكمل ما بدأ.

وجده في انتظاره، يجلس على كنبة صغيرة . في الطرقة . لا تتسع إلا لاثنين، نظر إليه، ودخل المكتب، وبعد أن استراح، طلبه، فدخل، وقبل أن يتكلم بادره المتهم قائلا:

. عاوز تعرف مين القاتل؟

نظر إليه، وتمتم: بالسهولة دي.

وانداحت بداخله موجة من الفرح، كونه سيعود إلى حجرته بأسرع مما توقع .لكن صاحب الوجه المسحوب، وقف وقال:

. تيجي معاي وأنا أدلك عليه.

تململ المحقق على كرسيه، وأراح يده على الملف، والكلمات التي قالها القاتل، كالنحلة تطن، لها وقع ضربات الرصاص. البصمات بصماته، حقيقة أكدها المعمل الجنائي، و شهود العيان، بقولهم إنه هو. أما الذين شاهدوا البقال، قالوا إنه تلقي أربع طلقات من بندقية كانت بحوزته، أربع رصاصات في صدره العريض:رصاصتان اخترقتا الجسد، واثنتان سكنتا (واحدة في الرئة، والثانية في البطن).

ذهب وعاين الجثة، وجد شمس الشتاء الواهنة تغسل نصف الجسد العلوي، مال بصدره على بنك الدكان، رأي خطوط الدم تنساب على ظهر البقال، مكونة بقعة من الدماء، تجاورها بقعة أخري ،تجمدت، واكتسبت لونا غامقا، تركها، وتراجع حتي يقوم المصور بعمله، ويلتقط عدة صور للجسد الساكن في أوضاع مختلفة.ومنح وجهه للقاتل ، فحصه بنظرة غيظ، مبعثها

fb/mashro3pdf

قسوة قلبه والتي بدت له ظاهره في جسد البقال، الكل أجمع أنه هو، وها هو ينكر.

. ومين القاتل؟

من دون أن يرفع عينيه، يقول:

. تعالي، وهناك هتعرف.

. مصر!!

أومأ له، ورفع رأسه ونظر إليه نظرات الثابت على ما قال. . أنا مقتلتهش.

قاسه بنظراته، فوجد الإصرار معششاً بوضوح في عينين غاب البياض عنهما بفعل عروق خفيفة دموية اللون، تركه وتحرك، منح عينيه للشارع الظاهر له من شرفة مكتبه، وجد أنه من السهل تصديق رتل الورق، وأقوال الشهود، وأن يطرد حياد وجهه جانبا، ما دام الورق مستوفياً وكاملاً، ولا غبارعليه، فالقرار، قرار إحالة إلى المحكمة، كلمات قليلة يمليها على الكاتب، وبعدها يوقع، وينتهي الأمر.

الفكرة أفزعته، جعلته يستدير، ويقول هامساً. ما الضرر في المشي وراء ما يقول، أليس من حقه الدفع بمبرراته، فكم من متهمين جلسوا أمامي، والأوراق المدبجة جيدا، تقول إنهم هم، وبعد تدقيق تبين أنهم خارج لعبة ما خلقت لنفسها قوانينها. أوقف التفكير، وهدأ من توتر كاد أن يرسخ لنفسه، ويحتل موقعاً بارزاً، جعله يفك رابطة العنق، ويقرر اقتناص الفرصة، فرصة يمكن ألا تتكرر مرة أخري. وقت قصير لن يغير في الأمر شيئا بالنسبة له، أما هو المتعلق بقشة، فالحياة بالنسبة له، جملة جالت في نفسه، بعدها تحرك، وقال:

. هنشوف.

انزلقت السيارة بهم، تقطع طريقاً يؤدي إلى البلدة، فلما وصلتها، كانت توجيهات القاتل، تدفع بالسيارة إلى طرق وعرة، تنزل، وتهبط، وهو صامت، معرضا وجهه للمحقق، يجلده بنظراته المملوءة بالريبة، ومن عينيه تضخم المقت، والشوارع لا تنتهي، وكأنهم داخل متاهة، متصلة لا سبيل للخروج منها إلا بالعودة من نفس الطريق المقطوع. وفكر. من الأفضل إيقاف السيارة، وسؤاله، أبقي الكثير؟ دون أن يحرك القاتل رمشاً أو يستفهم عن سبب الوقوف المفاجئ، قال:

. ما قاعد إلا القليل.

غضب المحقق لترك القاتل الأمر مفتوحاً، على كل الاحتمالات. ما باليد حيلة. همس بها، ومنح السائق إذنا بالمضي إلى نفس الوجهة التي يصفها.

fb/mashro3pdf

أصـبح بامكانــه، رؤيــة الأرض السـوداء وهــي تتـواري، وغـول اللـون الأصفر يهجم بشراسة، والبيوت المشيدة من الأسمنت تقل، وتبدو نادرة بين صفوف البيوت المشيدة من نفس الرمال، صفراء، وشاحبة كوجه القاتل، وهو يغرز عينيه في الأفق البعيد..

fb/mashro3pdf

هكذا كان الطعم

بعد أن وصلت إلى بوابة المدرسة، وقفت منصتاً لكلمات جدتي التي أصرت أن ترافقني:

. أوعاك تنضر للي في أيد غيرك، وخلي ودنك قبل عينك مع الأفندي، وحاجتك اللي في الخريطة ([1]) أوعي تتقط ([2])منك..

سكتت، واستدارت ومضت بدون أن تقول لي ماذا أفعل، وقفت أتابعها، وهي تمضي عائدة بدون أن تلوي عنقها وتنظر إلي،أختفت فدفعت بجسدي الصغير وسط العيال، دفعني موجهم حتى وجدت نفسي بجوار شجرة نبق عجوز، تحتها عدد هائل من العيال، يمسكون بقطع من الحجارة، واحد على الأرض والثاني يسكن قبضة الواحد منهم، يرفعه ويسقط به على نواة النبق، يهشمها ويخرج منها شيئا بني اللون، يطلقون عليه "طعمية"، لكل واحد من الجالسين فريق، يتكون من عدد من العيال، يطلقون عليهم "الجلابة"، يدورون وهم منحنون كأنهم يبحثون عن دودة القطن، يلتقط كل واحد منهم نوي النبق، بإشارة من أحدهم انضممت إلى فريقه، في البداية كنت كسولا في التقاط القطع، ومع الوقت نشطت يدي.

فلما جمعنا كمية كافية، قاسها "الكسار" بعينيه، فوجدها تكفي لجعلنا نتصدر السباق، طلب منا الجلوس، فتحلقنا حوله،نراقبه، يده كانت تعرف مقدار القوة المطلوبة لكسر النواة وإخراج السليم منها بدون خدش، وإبعاد الصغيرة التي لا تحتوي على طعمية كبيرة.

ولما امتلأ حوش المدرسة بالعيال ضاعف الكسار من جهده، فكان لا يضبط قوته، فيهشم النواة وما بداخلها، بيده يلم القطع الصغيرة جدا، ويناولها لأحد من فريقه، فيلقي بها في فمه، وهو يلتهمها يغمض عينيه، ويستحلبها. نال جميع أفراد الفريق نصيبا من الطعمية المهشمة، إلا أنا، انتبه الكسار إلى الخطأ في التوزيع، فناولني القطع، تقبلتها منه، وفحصتها بعينين مترددتين، أحد العيال الجلابة، رفع يده، وبسرعة قربها من فمه، يشجعني،أحجمت عن تناول القطع، ودفعت بها إلى جيبي، أحفظها فيه وليس أكثر من ذلك، وأهملت نظرات حملت باللوم لي من قبل الفريق.

حينما دوت ضربات الجرس اليدوي الكبير، تلونت الوجوه بالغضب، وكف الكسار عن العمل، وأخرج من جيبه منديلاً نظيفا بعض الشيء، أودع فيه ما جُمع لديه، ومضي مع وعد بالتجمع في نفس المكان في الفسحة.

---

[1] حقيبة تصنع من التيل الأبيض
[2] تسرق

fb/mashro3pdf

في الفصل، تمسكت بوصية جدتي، فتحولت إلى أذن تسمع، وعين تري وتتابع، تخلصت من كل هذا مع انطلاق جرس الفسحة، حملت حقيبتي وخرجت، علي آخر درجة من درجات السلم، أخرجت رغيفاً شمسياً اشترته لي جدتي من بائعة الفلافل، مددت أصابعي، وزعت قطع الطعمية مع قطع الطماطم في قلب الرغيف، فلما استوت المقادير، بدأت في قضمه، وتقدمت من الشجرة، حينما وصلت كانوا على وشك إنهاء عملية التقسيم، كل واحد أخذ نصيبه، منهم من وضعه في قلب رغيف وراح يقضمه، نظرت إليه، وهم ينظرون إلى رغيفي المحشو بالفلافل ثم حولوا عيونهم إلى الكسار الذي أصبح في حيرة من أمره، سرعان ما حسم الموقف، ومد يده بمنابي، اعتذرت، فوزع نصيبي على باقي فريق الجلابة، أخذوه، وابتعدت.

في اليوم التالي، وأنا برفقة جدتي وبينما أعبث بيدي في جيب السيالة، عثرت على القطع المهشمة، وضعتها في فمي، وبدأت في طحنها، فسري طعمها في فمي، وجدته لذيذا، فقررت أن أنضم إليهم.

ودعتني جدتي، فدخلت لم أجد ضجيج العيال، وجدت كردون من الشرطة المدرسية، يحيط أفرادها بأغصان الشجرة الملقاة على الأرض، ويد تمسك بالعصا توجهني:

. يالا على فصلك.

fb/mashro3pdf

شارع المنتزه

قالت، وهي تراه يتقدم إلى محل اللعب الذي تعمل فيه، كم هي صغيرة الدنيا، وتابعته وهو يمضي خلف سائقه ضخم الجثة، دوي احتكاك حذائه بالأسفلت وصل إليها، فلما اقترب من الفاترينة، تنحي السائق، فرأت عينيه تجولان في كل مكان كأنهما لا تريدان أن تستقرا على شئ، صوتها حينما خرج جعله يقف قبالتها:

. تحت أمرك

أخرج من جيب سترته ورقة مطوية، تناولتها، فوجدت أسماء لعب كثيرة يريدها.

كانت تخرج كل يوم، تجتاز البيوت، وتتجه إلى الكوبري، تعبره، وتدخل الشارع الرئيسي الغاص بالبشر وبالعيال الحفاة الذين يحرثون الأرض، تلهيهم ألعابهم عن صقيع يقضم الأقدام.كان شارع الكوبري ذات يوم بعيد منتزهاً، يقابله بيت من دورين، تتذكره، كل صباح ما زالت تبحث في مدخله وشرفاته عن رجل متأنق، كان يرتدي القمصان المشجرة والبنطلونات الجينز، ويغرق جسده برائحة كانت تعشقها.

يومها كانت تملك جسداً قد أفرج عن قطرات دم، أخبرتها أمها بأنها أدركت طور النساء، لكنها لم تفهم لغة جسدها، ومضت خلف نزق الرجل، تراقب ملاحقته لها وهي تعبر المنتزة، قادمة من بيوت أقرب ما تكون للعشش، ينتظرها، فإذا ما تجاوزته تبعها، تحافظ على معدل خطوها، فإذا ما خلفت المنتزة، دفعت بجسدها، فتبتعد عنه، وداخلها يقول إنه أبدا لن ينساها،وحتي تأكد طغيانها عليه، وقفت أمام المرآة وقتاً كبيراً. هكذا يكون الوجه، والحاجبان، والشفتان، تحتاجان للدماء. فتضغط عليهما بأسنانها، فإذا ما تحولتا حبتي كرز، تكف، وتعطي المرآة جنباً، لتري مؤخرتها. آه لو بقيا عند هذا الحد.

أمها كانت تراها، فتنهرها، وتخبرها أنها ذاهبة إلى مدرسة لا إلى حفلة، وتمد يدها وبفوطة تمحو ما وضعته من رتوش، تذعن، وتخرج، وقلبها يقول: النكد ممنوع. تمد خطواتها، تري البناية ما زالت كما هي، نالها ما نال جسدها من بصمة الأيام.

هي تعرف المسافة، وتعرف الزمن اللازم لقطعها، وزمن موازاتها له، لم يحدث وأخطأت ولو مرة واحدة، فإذا ما همت بتجاوزه، سمحت لركز قدميها أن يكون قوياً، وقادراً على إحداث ربكة في حركة الردفين صعوداً وهبوطاً، فإذا ما وصلتها جملته، رقص قلبها، ومدت خطوها.

fb/mashro3pdf

استمر الحال على هذا الانتظام حتى جاء صباح سُدت فيه فوهة الشارع الرئيسي، فوقفت خلف صف من السيارات، وعربات الكارو، وعدد من الدواب محملة بالبرسيم، والخضر، أمامها حمار قد ضجر من الحمل فراح يركل الأرض بحوافره، محدثاً صوتاً كضربات حذائها، وقبل أن تدخل جب الأسئلة، كان جسده قد التصق بجسدها، لامس بيديه ردفيها، فانتفضت، وغمغم بكلمات لم تسمعها، واكتفت بالنظر إليه، فنظر إلى الأرض.

وذات صباح نظرت فلم تجده، وحينما تكرر غيابه، عرفت أنها فقدته، لكن لمسته لجسدها ما غابت عنها، وحينما هدمت العشش وعُوض أهلها بشقة في الجانب الآخر، انقطعت عن الشارع، عادت إليه بعد التخرج، وأصبحت تقوم بعكس الرحلة الأولي بيدها حقيبة جلدية، بداخلها أحمر شفاة، وبودرة، وزجاجة عطر نفر داي حريمي..

في أول مرة، ألقت نظرة على البيت، وجدت مكانه عمارة عالية، أغلب شرفاتها تتصدرها لافتات لأطباء ومحامين، وأسماء لشركات تعمل في مجالات كثيرة.

وقفت للحظات، فلما وصلها همس يديه، تحركت، وتاهت عيناها، في زجاج الفاترينة، فرأت وجهه، ورأت علامات الأيام، وهو بين فينة وأخري يرفع يده القابضة على المنديل، يجفف عرقه، ويولي عينيه إليها.

سألته، حينما عادت ببعض اللعب لتضعها على سطح البنك:

. حضرتك من هنا؟

أومأ برأسه بالإيجاب، فتابعت:

. متشرفناش بحضرتك قبل كده.

. كنت مسافر.

وارتعشت يده، فوقع المنديل، وهي تلتقطه، كان هو يحسس بيده على سطح الفاتر

fb/mashro3pdf

ركن النسيان

تدفع بنفسها وسط ضجيج الشارع المستعر، على غير عادتها تبطئ من خطواتها، تكتشف أن المسافة بينها وبين انحناءة السوق بعيدة، فتتمني لو أسرعت، لتري المرأة، أمنية نغصت عليها بداية يومها، لم تعرف الغرض المستتر خلفها. ربما أبحث عن شماعة. همست لنفسها قبل أن تخرج.

الزحام يبدو قوياً، وقادراً على محو طيفها، لهزيمته، تأخذ جانبا، وتمضي، تحافظ على معدل مشيتها، مشية لم تتعود عليها منذ أن تعلمت اللف برفقة أمها الجلابة، تجمع ما تجود به البيوت من جبن وسمن، وحينما كبرت كانت تخرج وحدها، بجسد تختفي معالمه تحت جلباب واسع من الباتستا السادة، كان من يراها يظن أنها امرأة فاتها أن تنتسب لظل رجل.

من أنبت منها أطفالها الثلاثة، عرف المخبوء، يوم أن وقف على كنوزها، حينما كانت تُجري بروفة على ملابسها عند أخته الخياطة، سلبت لبه، فقالوا له إنه لو تزوج في مقتبل عمره، ربما كان لديه بنتا أو ولدا في مثل عمرها، ضحك وقال: أموالي تُجري في البحر طريقاً.استلم أذن أمها، وشاغلها بمال جمعه، وبيت يمتلكه.

أغلق عليها وعليه باب بيته، جعلها شغله لثلاث سنوات، أثمرت ثلاثة صبيان، صرف عليها وعليهم من لحمه الحي، فلما نفد ما لديه، وهن جسده، فتردد على المستشفي العام، مكث بين جدرانها ثلاثين يوما، بعدها مات.

بعد انحسار أفواج المعزيات، نظرت إلى البيت، لم تجد فيه ولا صياحةْ[٣] واحدة. كادت أن تكون لقمة سائغة لنحيب ملح، لولا وقوع نظرها على الطست الصغير، والمقطف، وجدتهما بين أشياء قديمة في نهاية الدار، أمسكت بالطست وجدته مبطناً بصدأ كاسي، عكفت عليه برماد الفرن وفص الليمون، فلما رأت جوفه لامعا، حملته وخرجت على فيض الكريم، قصدت البيوت على استحياء، دخلت كثيراً منها، لم تظفر إلا بالقليل من قطع الجبن، تعجبت، فلما سألت، عرفت.

فبعد زواجها، نزل البلدة رجل يقود دراجة بخارية، عرض شراء اللبن، فرحت النساء، أما الرجال فتكدروا لأسبوع واحد لفقد البيوت لطقس الخض، في نهايته حضر الرجل، فأخرجتْ كل واحدة نوتة صغيرة، جمع أرقامها، وفي النهاية أعطي كل واحدة مبلغا مجمدا من المال، كان كفيلاً بعودة الود بين الأزواج.

---

[٣] د جاجة

fb/mashro3pdf

رضيت بالقليل، وطلبت أن يطرح الله فيه البركة، حملته إلى سوق المدينة، بعد أن استقلت سيارة أجرة، كان لها سائقها الشتائم، لتسرب شرش الجبن على صاج سياراته،تلكأت الدموع في عينيها، حتى جلست في سوق اللحمة.

***

اجتازت الانحناءة بنفس معدل المشي، رأت المرأة، كما هي لم تتغير، تشمر كمي الجلباب، لإتاحة الفرصة كاملة لغوايشها أن تظهر، تمسك بالمنشة الليف، تحركها ذات اليمين وذات الشمال، تبعد الذباب عن قطع الجبن المغطاة بأعواد البرسيم، الذباب يطير ويحلق، بعضه يتلاقى مع القادم من حوانيت اللحم المستقبلة ظهر المرأة المكتنزة، والمتعلق به فلقتان هائلتان ... نظرت إليها وهي تقترب بالطست، تفرق عركة نشبت بين بائعتين، فتحت لنفسها ثغرة، بمساعدة ذراعين قويتين، وكالغريق تضرب هنا وهناك، نجحت ضرباتها في إنهاء التشابك، وأبقت على الكلمات البذيئة، تخرسهم بها.

سكنت كل واحدة خلف طستها، تهش عن ريعها الذباب، وتطلب بأهدابها زبوناً، ينتشلها من قسوة الجلسة.

نظرت المرأة إليها، لعقتها بعينيها كما تفعل الماشية بصغيرها فور خروجه للحياة، كانت هي في عرض نداء يخرج من إحدى النساء الجالسات، نداء يحركها ويبعدها عن مرمي نظرات صريحة

***

تنظر إلى المرأة، تجدها مشغولة بصبية في مقتبل العمر، لا هي بالنحيفة ولا بالسمينة، وسط بين هذا وذاك، تتبادل على ما يبدو حوارا معها، تضمخه روح الفكاهة ...

يبعدها الألم عن المتابعة، فتمد يدها أسفل بطنها، تأخذ قبضة من اللحم وتضغط، ويلح عليها الصراخ، تعدل عنه خشية أن تتحول إلى عجينة طرية، تتلاعب بها الأيدي، كما حدث في أول مرة تجلس هنا للبائعة الحسود.

***

كان يفصل بينها وبين المرأة المكتنزة، إحدى البائعات، وضعها لم يمنع العينين المكحلتين من متابعتها، وهي تقلب القطع، وترش عليها شرش الجبن، تجاهلت النظرات، وحشدت نفسها، وراء نداء كانت تردده أمها، لم تبذل جهدا كبيرا حينما قالت:

" بخيره "

fb/mashro3pdf

كلمة كان لها وقع السحر، جعلت واحدة من رواد السوق تميل عليها، وتتذوق بضاعتها، فتعجبها، فتأخذ منها وتعطيها ما طلبت بدون أن تدخل في حالة من حالات الفصال.. تم هذا وسط دهشة كل البائعات.

أيقنت أن في الكلمة سعدها، فتعلقت بها كالخاتم في الإصبع، وشرعت بترديدها متشبثة بما كسبت، فرحة لم تكتمل بسبب تراقص الحسد على لسان إحدى البائعات، طالبتها بالسكوت، كلمة نقلها الهواء، لم تمنحها أي اهتمام، الحاسدة اشتاطت غضبا، فنزعت فردة حذائها وقذفتها بها، مالت، فتجاوزتها والتصقت بالبائعة القريبة من المرأة المكتنزة، هبت، تقودها ثورة عارمة، أخذت في وجهها طست المرأة المضروبة، وطستها هي، قبل أن تمسك بالحاسدة وتفرج عليها رواد السوق.

***

تنزوي في ركن قصي، يعينها جذع شجرة الكازورينا على الانتصاب والتخفي، ويعطيها مكانا أفضل لمراقبة المرأة المكتنزة وهي تحاول جذب الصبية الضحوك، برغيف تمده لها، تراها فتقول: " طُعم يا عبيطة، حاسبي يا عبيطة ".

***

في اليوم التالي، قلصت المرأة المكتنزة المسافة، جعلت طستها ملاصقا لها، أخبرتها بالمشقة في جمع ما تبيعه، هونت الأمر عليها، وقالت وهي ترسل ضحكة قوية " تتعدل ".

لما كثرت الشكوى، قالت لها المرأة إن المحتاجة لا يقع عليها حساب،نهرتها، فمطت المرأة بوزها وحسمت قولها قائلة: "على كيفك"

في البيت، فكرت في لم البيض وبيعه نظير عمولة صغيرة.

وفي أول يوم، وبعد أن غادرت السيارة، تنزلق قدمها في أرض مبللة بالماء، فتسقط من طولها، وتفقد ما معها من ريع، جلست تبكي على ما خسرته، دقائق وأيقنت أن البكاء لن يعيد لها شيئا مما خسرته، ورأت في جلستها المرأة المكتنزة، تظهر وتختفي، فتعلقت بها.

دقائق وكانت تقصد بيتاً من دورين تحيط به حديقة بها أشجار وزهور، وكلمات المرأة ترافقها" ساعة مع البيه، مش هتنقص منك حاجة ".

***

يشتد الألم، فتنهار ...

fb/mashro3pdf

عصـا

وجوه العيال الطافحة بالكره لصاحب البيت، يطلقوها في هيئة شتائم، تفلح في بث الغضب في جسد الرجل، فيكز على أسنانه وبعصبية يحرك عصاه، فتصطدم بطرف الدكة، فتولد الخبطات، يقوي من دويها، بغرض تحجيم وجودهم، ومنعهم من الاقتراب من داير الفسحاية المكنوسة والمنداة بالماء، لاستقبال الضيوف ..

العيال من جانبهم، يرددون بصوت واحد: العقيرة..العقيرة..لواد الفقيرة. ينفلت أحدهم من وسط الجوقة المتداخلة، يدنو ببطء مصحوباً بتشجيع رفقته، تأخذه خطواته الزاحفة إلى بداية أول دكة، يلقي بجسده عليها، ينظر إليه صاحب البيت ، ويحرك عصا في الهواء، الصغير المنتبه لفحوى الرسالة، يهملها، ويضم ساقيه، ثم يهزهما برفق، متعمداً ألا تتقابل عيناه مع نظرات الرجل الذي شرع في الإسراع في هز عصاه في الهواء، فأحدثت صوتاً، تخطي الساحة ووصل للعيون المتابعة، رجحت أن العصا سوف تطير من يده، أو أن تظل في يده وهو يطارده ليوقع بها على جسده.

يغادر مكان جلوسه، لا تردعه كلمات يقولها له عجوز قريب منه، تبعه وهو يدنو من الصغير الذي وضع ذيل جلبابه بين أسنانه، وجري لينفد بجلده من عقاب الرجل، برميه العصا، فتصطدم بمؤخرة ساقه، تجعله يسقط، منهاراً على ركبتيه، لكن تصوره لما ينتظره جعله يشب على قدميه، ويخطو مسرعاً . بعرج واضح . لينجو، لكن اليد القوية نجحت وقبضت على جلبابه من الرقبة، فقيدته إلى الأرض، لتمتد بسرعة ودربة إلى أذن الصغير، فتقبض عليها بقسوة، فتخُرج صرخات ملتاعة، تملأ الساحة، يصرخ بينما يده داخل جيبه، تقبض على ملعقته.

بينما يد الرجل وهي تواصل هصر أذن الصغير، عيناه تجوبان على البيوت المواجهة للساحة، تبحثان عن امرأة تتشيع لمن في قبضة يده، ليجلدها بكلام يخدش جسدها ويخرس لسانها. الوقت يمضي ولا أحد يخرج، ومن يجرؤ على ذلك الفعل إلا امرأة تريد فضح نفسها، هكذا يقول العجوز لنفسه وهو يتقدم لإنقاذ أذن الصغير المدفونة في قبضة صاحبه، يعافر بكل قواه لشد اليد الجافة، المتشبثة بكل قوة بأذن الصغير المندفع للإمام بفعل خوفه وللخلف تحت قوة الشد، يتعب فيكف ويعلقً أمل نجاته في فم العجوز، معنفا إياه كونه وضع نفسه أمام صغير لا يعقل ما يفعل.

يتركه الرجل ويعود لمكان جلوسهما، ويحاول أن يتكلم لكن ضجة تصادم الملاعق تجعله يعود إلى سابق عهده، ويعود إليه التوتر، فيهم

fb/mashro3pdf

بالقيام، فيجلسه العجوز ويعيد ما قاله بصوت منخفض، كلمات لم تفلح في كبح غضب صاحب البيت، فحذر أي صغير يجده على أي دكة .

إصرار الصغار قوي أكثر مما كان عليه قبل أن يتفوه الرجل بالكلمات التي قالها، قرأ ذلك من الجلسة الجماعية التي قاموا بها في لحظة واحدة وبحركة واحدة، فلا يجد إلا توجيه وجهه شطر وجه العجوز المشوه المعالم تحت ضغط الغضب، يخبره إن الصغار إذا سدوا بطونهم بأي شيء، سكتوا، فلا يضيره لو قدم لهم وعاء من الدشيشة المخلوطة بالأرز.

يفلح العجوز في مهمته، فيقوم الرجل ويدخل البيت، في نفس لحظة امتداد يد العجوز إلى الصغار الجالسين، وطلبه منهم أن يقبلوا. نظرات قليلة تبادلها الصغار، كانت الريبة هي سيدة الموقف، تُكبل أقدامهم، وتمنع وقوفهم، لكن حينما وقف من في قدمه عرج، تبعه الكل. تحت سماء نظر العجوز استراحت أجسادهم على أول دكة، تلاصقت أجسادهم، وعلت همساتهم وضحكاتهم، التي سرعان ما ماتت عندما رفع سبابته وجعلها متعامدة على شفتيه.

يخرج صاحب البيت وبين يديه تستقر كسرونة كبيرة، ينطلق منها بخار يحمل رائحة حريفة، أفلحت في شخب ريق كل الصغار، ودفعتهم إلى إخراج الملاعق ورفعها كأنها سيوف، والهرولة للبقعة المنداة من الأرض التي أراح فيها العجوز مخلوط الأرز والقمح المدشوش.

لم يستغرق الإتيان على ما في الكسرونة إلا دقائق قليلة، بعدها انتصبت أقدامهم، واخترقوا الساحة المتراص على جانبيها الدكك، وما إن أصبحوا في فم الفسحاية، حتى تسربت إليهم رائحة اللحم الناضج، فتلمظت أفواههم وتحولوا إلى جوقة، نصفها راح يهتف:

. أكلنا عقيرة.

والنصف الآخر يرد:

. لم نأكل لحماً

ضحك العجوز، بينما الرجل رفع عصاه وجري خلف الفرقة المنشدة ..

fb/mashro3pdf

مـشهـد ه ا لأخـيـر

تدخل الرواق المغلق بمفتاح لا تملكه إلا هي، تفتح الدولاب، تسحب الشال المبقع بدمه، تقربه من أنفها، وتبحر، تري نفسها وسط جمع غفير من النساء، في كامل زينتها، والبنات حولها بالزغاريد تصيح، وبعض الجدعان يمسكون بالمصابيح، وأمها ترش الملح، وعلي إيقاع الكفوف راحت الأغاني تتردد من أفواه البنات:

يا عروسة يا أم غالي انجلي ولا تبالي

هي في شغل عن تلك الطقوس، تقوم باسترجاع صورة زوجها، وكلامه الذي دخل في رأس والدها وهو الغريب الذي ساقته لقمة العيش للعمل في مدرسة البلدة.

وسط هذا الصخب يبرز ابن العم كعفريت العلبة، بزقلته اعترض الموكب، وقالها صريحة:

. محدش هيا خدها غيري

دوت الكلمات في براح الشارع، فسمعها كل من في الموكب، وكل امرأة تنظر من كوة، والكل انتظر رد فعل الأب، المعروف عنه الصراحة وأنه يقول للأعور صفته في عينه، إذا ما حاد عن طريق الأسلاف.

طال صمته.

تجرأ ابن العم، ودق زقلته في الأرض وكرر كلامه، تقبضت ملامح الأب وصرخ فيه: تأدب.

صاحب الزقلة قال إنه طبقا للعرف يحق له أخذها من فوق ظهر الفرس.

ألجمته الجملة، فسربت هي نظرة إلى الأب فوجدته قد أطرق برأسه إلى الأرض، قالت ليس بيده اليوم حيلة، وما عليه إلا الرضوخ لعرف شارك في المحافظة عليه.

وسط اللغط الذي بدأ يحتل الألسن، دخل في حالة من الصمت مكتفيا بتطويق الوجه المنمق بعينين يتسكع فيهما الدمع، راقب وجهها المحتقن بسخونة الخوف الذي سرب العرق من مسام وجهها فشوّه زينتها، جاعلاً خطوطا سوداء تنساب، لتسكن الوجنتين.

وكالغريق المتعلق بقشة تنتشله من خضم أمواج متعاركة، تريد سحبه إلى هوة سحيقة، قالها بدون توقع وبدون سابق تجربة:

. نأخذ رأيها.

fb/mashro3pdf

. ده مش في عرفنا.

. بس ده في عرف خالق الخلق.

. وعرفك؟

. في الحتة دي مينفعش.

همهمات وكلمات لا أول لها ولا آخر، تريد إخضاعه لرأي العرف الذي هو رأي الجماعة، تركهم حني جفت منابع الكلام، فزعق فيهم متسائلاً كيف حال أحدهم إذا ما أجبر على أكل لقمة لا تروق له؟

هنا توحدتْ معه، وشعرتْ أنها الأثيرة لديه ومن أجلها يخوض معركة يبدو من الوهلة الأولي أن النصر لن يكون حليفه.

الزغاريد التي دوت من أسطح البيوت، ومن النسوة اللاتي حولها، جعلت الوجوه المعقودة تفلك كل خيام التردد وتقول:

. على بركة الله.

لم يقتنع صاحب الزقلة، فما كان منه إلا أن طوحها، وجعلها في اتجاه الرأس.

تنتفض، وهي أمام الدولاب، وتضم الشال إلى صدرها، وتنظر إلى الطاقة تفتحها بالمفتاح المربوط في عقصة الصوف، تطل الصورة، تسحبها، وتنظر إلى الرأس، وتفكر: كم تحمل من ضربات..تحاول بكل ما تملك من قوة، التملص من مشهده الأخير، محاولة لا تكتمل، فتوزع نظراتها بين الشال والصورة، وتمنح نفسها للمشهد .....

fb/mashro3pdf

صانع أوقات البهجة

كلما مررت على الكوبري، ناوش الحذاء عيني والمياه تقله، وظل ابتسامة تولد من وجه يعطي ملامحه، أراه بكامل تقاطيعه، يبتسم ببهجة كانت تملأ محيط اللعب تحت السنطة، أجلس فأتذكر الولد النحيف ومقطفه الصغير وخطواته المسرعة وأنا برفقة أمي وقت عودتنا من مكتب البريد، بعد قبض معاش أبي ..

أغمض عيني، فأراه يدق باب البيت، دقات حانية، يبتسم أبي الجالس على كرسي الخيزران، ويومئ نحوى لكى أستقبله، أراه بجسده النحيل المختفي بين طيات فانلة وجلباب مبرقش بالرقع والبقع، بيننا عتبة البيت، نتواجه فى فرحة حتى يأمرنى والدي بالذهاب معه.

تتشابك الأيدي، ونجري، وفي مملكة اللعب تحت سنطة عجوز نقف، وبخبرة أيام سابقة يخلع كل واحد منا جلبابه، نظل بالملابس الداخلية، أنا بالشورت والفانلة المزهرة، وهو بفانلة تطرزها الثقوب وسروال من الدبلان يمرح على حجره نهايات أستك.

نقتسم الأرض بالتساوي، نخططها إلى أحواض صغيرة بينها قنوات، ونجعلها حقلا للبطيخ، كل ثمرة قبضة من تراب الطريق، وبكوز نخفيه في طين الترعة، نحمل المياه بالتبادل، نُغرق الأرض، ثم نجلس بجوارها على بساط من النجيلة الخضراء، نفتح القلوب ونُخرج كل ما فيها من أحلام، أحلام صغيرة بحجم قلوبنا ..

غاية ما أرجوه من أحلام، كان يدور حول امتلاك طائرة ورقية، كالتى رأيتها بحوزة عيل من عيال المدينة، وأنا برفقة أمي حينما عرضتني على طبيب العيون في مستشفي المركز، رأيتها تحلق في العلالى، تروح وتجئ، وتعلو وتنخفض، والصغير يمسك بالخيط، يوجهها ويتحكم في ارتفاعها بمهارة ، قلت لرفيق الدرج إنها تشبه الفراشة في خفتها، فتعجب من قولي.

بعد شهور قليلة امتلكت واحدة، صنعها لي زميل أبي في العمل، يومها طرت إلى رفيقي، اخترقت شوارع البلدة، والطائرة في حضني، ولفة الخيط في جيبي، صلت إلى حارتهم، فلمحته غاطسًا في معجنة طين، تسمرت محتارا، أذهب، لا أذهب.... في النهاية مالت الكفة إلى إكمال المشوار .

ركنت الطائرة على حجر قريب، وهممت بنزع الجلباب، بغرض القفز بجواره، أعينه على ما يقوم به، أمه منعتنى وأمرته بالخروج كي يجلس

fb/mashro3pdf

معي، رفض، لكن الأم شمرت سروالها ودفست فيه الجلباب وأرغمته على الخروج وطالبته بتنظيف نفسه، وقبل أن نفارق المكان، قالت له:

. قبل غروب الشمس تكون هنا.

في مملكة اللعب تحت السنطة، أعددنا الطائرة، وبعيداً عن غصون الشجرة، أطلقناها،كنت أتبادل معه التحكم فيها، يضحك فاضحك، سعيداً كان بحلم تحقق لي، وأنا أسكرتني نشوة الطائرة ونسيت حلمه ليوم سألته عنه، فقال:

. حذاء.

لم أعقب، واكتفيت بإلقاء نظرة إلى ما في قدميه، وجدته حذاء لكنه من البلاستيك الرخيص، تمرح على لحمه رسوم صغيرة، غصن هنا وكرة هناك، وسهم يخترق قلبًا يقطر بعض الدوائر الحمراء.

مات أبي، وقلت حركتي، وذات مرة كنت عائداً برفقة أمي من مكتب البريد، فلمحته متسللاً تحت إبطه مقطف من الخوص، يتجه إلى الطريق المؤدية للعزب المتاخمة لبلدتنا ، كل منا كان حريصاً على تجاهل الآخر. نظرت إلى قدميه لم أجد الحذاء البلاستيكي، وجدت بدلا منه "كوتشي"، كل فردة منه يوجد بها فتحتان، واحدة في كل جهة ، ابتسمت له لكنه أدار وجهه بعيداً ولم يبادلني سعادتي بتحقيق حلمه.

قبل زوال يوم شتوي، وبينما نروي حقولنا، مر علينا عيال من العزب القريبة، وقف أحدهم بالقرب من أحذيتنا وملابسنا، وهمس لأقرب واحد منه، بينما إصبعه يشير إلى"الكوتشي" وقال إنه كان ملكه ذات يوم، رفيقي لمح الهمس، وتشاغل بما كنا نقوم به.

أثناء العودة الأخيرة، استوقفني، والحذاء في يده وقال:

. أدور بالمقطف على البيوت البعيدة، أدق الأبواب، باب يفتح وباب.

لم يكمل وتركني وجري. حينما غابت شمس ذلك اليوم، كنت ضمن حشد من أهل البلد نتلمس طريقنا بواسطة كشافات النيون، تنفيذا لكلمة خرجت من فم عجوز:

. الماء .

هنا وقفنا بعيون مفتوحة، والحذاء يعتلي ظهر الماء.

fb/mashro3pdf

وقـائـع مـوت رجل عـادي

يبدو الأفق المحدق به كسجن لا صوت فيه، يستدير ويلقي نظرة على بيوت البلدة البعيدة تظهر له متلاصقة كتلة واحدة من سواد متشابك.

يقرر الهروب من المنظر ومن الحر الخانق إلى النهر، يعتلي تلاً مرتفعا، يري صفحة النهر تلمع تحت ضوء القمر الخافت، يغمض عينيه، يتخيل جسده ملقي بين أمواجه الهادئة، تدغدغ جسده المكدود، تخلصه من كل أدران اليوم.

الفكرة كثيراً ما روادته، لكنه كان يبعدها، على أساس أن للنهار عيونا أما الليل فهو صادم في سكونه .

يهز رأسه، يبعد الخوف الذي يفتح في نفسه ثقباً لينفذ منه إليه وينظر، فإذا صفحة المياه كأنها جسد أنثي تطلبه، تفتح له صدرها المتحرر، وكذلك فخذيها، يمص ريقه، يفارق التل، ويتقدم .

يصل إلى الشاطئ، يخلع قميصه وسرواله المهترئ .

يمضي جسده مع الموج، فإذا ابتعد، حجم نفسه وعاد ليكون بالقرب من الشاطئ، وسط نشوته، يتناهى إلى سمعه صهيل خيل، يرفع رأسه، يلمح سرواله وقميصه على عصا .. يستشعر من نظراتهم التي تطالبه بالخروج الشر، يتلكأ في تنفيذ الأمر، فيستفزهم وهم يتبادلون حوارا صامتا، سرعان ما يتحول إلى همهمات، تؤدي إلى تمزيق السروال والقميص، فتذهب بلا رجعة دغدغة مرح كانت تسكن جسده، ويعانق بأذنه انفلات صبر أحدهم، يأمره:

. اطلع يا ولد!

يخرج وهو يداري عورته الأمامية بيديه، تهيج الأفواه وتدخل في حلبة الضحك الصاخب، وسطهم يلف بجسد تملكته الرعشة، كنحلة رميت بدوبارة، فراحت تلف وتزن، وتزن وتلف .. في إحدى الحركات تلقي جسده ركلة من أحدهم، فاختل توازنه، فوقع على بطنه، فارتفعت ضحكاتهم، فتحامل ولف بجسد يرتجف، واجههم ، فاكتشف ما يقررون فعله، وغاب.

أصبح الأفق محتقناً بالبوم الناعق، وبدت المساحة المحدقة به مكتظة بالنائحات وهن يرددن عديدا منغما، كان يسمعه في صغره فكان يحسبه همهمات، لم يكن يميز بين كلمة وأختها .

" واللي جري لي ما أقول لحد عليه "

يتذكر، ويدخل في وصلة من النشيج المتقطع، وبألم يضرب الأرض براحتي يديه وهما مفرودتان، وظهره العاري ومؤخرته الملوثة بدمه لا يشعر

fb/mashro3pdf

بهما، يزداد ضربه للأرض ويحاول أن يصرخ، فلا يطاوعه لسانه، فقط حشرجات تخرج، لا تحمل أي كلمة، أثناء الضرب لا يستطيع النظر إلى يديه، لأنهما لم يقوما بما يجب عمله، فكل ما قاما به لا يخرج عما يفعله الصغار في شجارهم، بعض خدوش بسيطة لا تفلح في" شخب" الدم.

يكف عن ضرب الأرض، ويلوم نفسه لأنه لم يعودهما على حمل الهراوات ولا الفئوس .

في وضع سكونه، يصل لأذنيه همس أقدام تمشي على مهل، يحرك رأسه، يلمح بالقرب منه ذئباً يلهث، يقرأ في عينيه نذر الغدر، فلا يجزع، ويطالبه بالانقضاض عليه ويعده بعدم المقاومة، ويتأسف له لأنه سيأكل لحمه النجس.

الذئب لم يتقدم، اكتفي بأن نفض جسده، فطرد الماء الملتصق به، وهز ذيله ومضي. يضحك، ويقول:

" فرطت في السلاح، يوم أن قالوا لك لم نخلق للسلاح، بل خلقنا للزرع والقلع، نضرب فنقول المسامح كريم، منذ الصغر وهم يقولون، وأنت قنعت، واليوم أكلتك الكلاب، نهشت لحمك، ودكت عظامك، فلا ضررمن نهش الأفواه لسيرتك إذا ما طلع النهار، وكشف نوره الفاضح عن جسدك المشلول هنا بجوار الشاطئ ".

يصل لتلك الجملة فينتفض جسده، نفضة تشبه نفضة خروج الروح، فيكبش في الأرض، ويدفع جسده، فيتحرك حركة لا تبين ولا تصلح للوصول إلى بيته، فيقرر دحرجته، فيدور كمدور الساقية، بين لفة وأخري يُغرز فيه سن شوكة، أو يؤلمه الحصى الكبير، لا يهتم، فقط يردد " انتهي زمن الألم".

يصل إلى باب البيت، يدفع جسده بقوة، فتفتح " السدة " ويدخل، يرسل عينيه إلى شق في جدار، يلمح اليد الخشبية، يسحبها فتخرج من مكمنها، يعانق نصلها الحاد، ويغمض عينيه، بعد أن حدد مكان القلب.

fb/mashro3pdf

مصطفى البلكي

. قاص وروائي، من مواليد قرية عرب الأطاولة، أسيوط ١٩٧٢.
. أخصائي كيميائي بالتأمين الصحي بأسيوط.
. عضو اتحاد الكتاب.
. حصل على العديد من الجوائز الأدبية في القصة والرواية من الهيئة العامة لقصور الثقافة، ونادي القصة،وصالون إحسان عبد القدوس، واتحاد الكتاب، وجمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين الثقافية، وساقية الصاوى

صدر له:

- تل الفواخير. رواية . الهيئة العامة لقصور الثقافة
- الجمل هام للنبي . قصص قصيرة . مركز الحضارة العربية
- البناء الأعظم . رواية . روايات الهلال التاريخية
- بياع الملاح . رواية . مركز الحضارة العربية
- الكاهن الأكبر . رواية . روايات الهلال التاريخية
- طوق من مسد . رواية . الهيئة العامة لقصور الثقافة
- الإضراب الأول . رواية . روايات الهلال التاريخية
- ساوتي . رواية . روايات الهلال التاريخية
- دوامات الصمت والتراب ابداع الثورة قصور الثقافة

العنوان البريدي:

أسيوط . الفتح . قرية عرب الأطاولة

fb/mashro3pdf